مَسَلَّةُ الأحزانِ السومرية

علي السباعي

الكتاب: مَسَلَّةُ الأحزانِ السومري

المؤلف: علي السباعي

تصميم الغلاف: محمد بن منصور

مراجعة وإخراج: نور الدين الوادي

الطبعة الأولى: 2018

ISBN: 978-619-91054-0-52018

دار الدراويش للنشر والترجمة

جمهورية بلغاريا - بلوفديف

Фирма Бадер

---

www.darawesh.com

daraldarawesh@gmail.com

https://www.facebook.com/Daraweshplovdiv/#



مَسَلَّةُ الأحزانِ السومري

قصص

علي السباعي



Plovdiv- Bulgaria
2018

إلى : بلدٍ مَيِّتٍ .

كُتبَ على هذهِ الأرض أن لا يُقالُ
فيها سوى المراثَي والمَناحـــات

((شاعر سومري))

شارلي شابلن يموت وحده

أعمل مصلّحاً للأجهزة الكهربائية الدقيقة في مدينة أور ، تعلمت من زوربا حب الحياة ، وكنت كجيفارا متمرداً ، كنت معوزاً للفرح ، لابتسامات الناس ، للربيع يلامس قلبي ، للبياض ، لرؤية الألوان الفاتنة تطرز حياة الناس ، لأجواء السعادة تشرق على الناس مثلما أشرقت شمس تموز صباح اليوم الجمعة ، أشرقت فوق هامات النخيل بلون أرجواني مخضر لتشرق معها على وجهي الأسمر الجنوبي ابتسامة شارلي شابلن ، ابتدئ صباحي بابتسامة لأنهي غروبي بابتسامة ، أبدأ عملي بابتسامة لأحافظ على مزاجي رائقاً طوال النهار حتى الغروب ، وكأنني أجامل الصباح والناس والغروب بابتسامة صادقة ترمم القلوب المخدوشة بالحزن ، أفضل أن يراني الناس بوجه تشرق فيه ابتسامة دائمة ، أمشي بينهم في الأسواق والأزقة بخطوات شارلي شابلن مرتدياً ألوان الفرح الفاتنة مرفوع الرأس ، لأنني انفق وقتي كله منحني الرأس عاكفاً على تصليح أجهزة التلفزيون والستلايات ، أخذت قول شارلي شابلن على محمل الجد : لن تجد قوس قزح ما دمت تنظر إلى الأسفل ، آمنت برأيه : يوم من دون سخرية هو يوم ضائع ، نهار يوم الجمعة مشرقٌ ، كنت مثله مشرقاً بالمسرة ، تذكرت أنه اليوم الذي صلب فيه المسيح «ع» ، صرت أشيع أجواء الفرحة ، أمازح الباعة المتجولين والكسبة وعمال المسطر والعتالين والصبية بائعي الماء البارد والمتسولين ، أوصي نفسي بان أكون هادئ البال منشرحاً ، لم أعش حياتي متذمراً ساخطاً ، عشت بقلب أبيض راضياً ، عشتها هكذا حتى لا أصاب بالحزن ، علقت على الحائط بدل صورة السيد الرئيس فوق رأسي حكمة قالها شارلي شابلن : لو كنت نبياً لجعلت رسالتي السعادة لكل البشر ، ووعدت أتباعي بالحرية ، ومعجزتي أن أضع البسمة والضحكة

فوق أفواه الصغار ، ما كنت لأتوعد أحداً بنيران جهنم ولا أعد أحداً بالجنة ، كنت سأدعوهم فقط إلى أن يكونوا بشراً وأن يفكروا ، ليقرأها كل من يدخل ورشتي ، ينعتني أبناء مدينتي بشارلي شابلن لأنني أمشي مثل مشيته ، أبتسم ابتسامته ، أدمنت مشاهدة أفلامه إلا أنني أختلف عنه في حبي للإليكترونيات ، أعيش وحيداً ، ينطبق علي قول رافائيل ألبرتي : أنت في وحدتك بلد مزدحم ، بلغت درجة الحرارة ٥٤ مئوية ، بمجرد خروجك إلى الشارع تتلظى ، أشاهد غيوماً سوداً تجمعت وسط الحر القائظ في هذا الصيف المر ، وما صنعته هذه الغيوم من فيء بارد ، اعلم أنها أجواء الشؤم التي تُذهِب البسمة ، أجواء تقبض القلب ، والمتبضعون يسيرون غير مبالين بالحر لأنهم اعتادوه ، حرارة أنفاس الناس تتشظى حارة هائجة تصل حد القسوة المنفرة ، وشمس الضحى القاسية التي تستمد لونها من لون العسل ، ابتسمت للشمس العسلية ، تمنيت نزول المطر ، مطر مدرار ، بأصوات رنانة تملؤني بهجة لألوان أكثر ابتساماً ، يمر أمام ورشتي الصغيرة وعلى الرصيف المقابل لورشتي رجال وأولاد صغار ونسوة يتسوقن ، أسمع أصوات الحياة الصاخبة ، أضحك بفرح طفولي ، يحتسي رواد المقهى أمامي الشاي رغم ارتفاع درجات الحرارة في هجير أكثر أيام الصيف قيظاً ، دخل شخص علي لم أرفع رأسي لأراه ، أحسست بدخوله ، كنت منهمكاً في عملي ، رنوت إليه : جارنا يحيى المنغولي ، كان يحيى نقياً ودوداً بريئاً عذباً بلا حدود ينجذب الناس إليه كالفراشات ، يرنو لي ، يمسك بيده ستلايت قديماً جداً مع جهاز التحكم عن بعد ، يتلفت ويبتسم ، يبتسم ويتلفت ، تلفت إليه وابتسمت ، ينظر إلي وانظر إليه ، كان يراوح بقدميه وهو واقف وكأنه في كردوس عسكري أمر بمحلك قف ، مكانك قف ، وبشفتين يابستين أخبرني بصوت فيه أشراقة رجاء ممزوجة بخجل مرت بقلبي ونشرت المسرة : إنه عاطل ، وعليّ إصلاحه ، شعر قلبي بالسعادة ، راح قلبي يضرب بسعادة أضلاع قفصي الصدري ، ابتسمت ، ابتسم ، ضحكت ملء روحي ، ضحك ملء روحه ، وما زحته : أنت عاطل عن العمل أم الجهاز ؟ ضحك ، سافرت مع ضحكته بمزاج جديد

داخل نفسي ، ضحك ملأ روحه الطاهرة ، كنت انظر طوال حديثنا في عينيه المنغوليتين ، أخبرته بعد أن فحصت الستلايت أن الجهاز صالح للعمل وبحالة جيدة ، وجهاز التحكم عن بعد كان عاطلاً ، طلبت منه شراء واحد آخر من المحل المقابل لمحلي ، قال : ما عندي فلوس ، ضحكت بشدة ، أعطيته ثمن جهاز التحكم عن بعد ، خرج فرحاً مطمئناً مبتسماً ، بيمناه جهاز التحكم عن بعد ، بعد خروجه بلحظات رج المكان انفجار عنيف ، سبقه سطوع ضوء لهب أزرق مبهر ، غليان أحمر ، موجة رعب ، صراخ ، وعويل ، خرجت من ورشتي بعد انتهاء الانفجار أركض مثل شارلي شابلن لكن دونما عصا في جو ملؤه الفوضى والصراخ والدم والقتلى والجرحى والأشلاء تملأ السوق ، صار المكان بشعاً ، ريح حمراء عصفت بالسوق والناس وكل شيء ، جعلت أرض أور أرض دم ، أرك الدمار طال كل شيء ،هشم موجودات السوق وجعل الناس أشلاء ، وكل شيء منقلب رأساً على عقب ، بقع الدم تملأ أسفلت الشارع والجدران وهامات النخيل اكتوت بدماء القتلى والجرحى ، حفرة كبيرة ملئت بجثثهم ودمائهم وبضاعتهم وبضاعة المحال التجارية وزجاج واجهات المحلات محطم ، البضائع اختلطت بدماء الأبرياء ، صار شائعاً رؤية الأجساد الممزقة بعد كل انفجار ، خرجت وسط الدمار مرعوباً منهك القوى والروح ، هرعت من محلي هلعاً خائفاً ، هنالك حشد من الناجين ملطخ بالدم والوحل يحتشدون فوق شيء ما ، يضربونه بشده ، ظننته لأول وهلة إرهابياً ثانياً يحاول تفجير نفسه ، فعادة ما يعمد الإرهابيون إلى تفجير مزدوج ، بعد إن ينتهي التفجير الأول ، يتجمع الناس لإنقاذ الجرحى يفجر إرهابي ثان نفسه ، كل من في السوق يضرب شخصاً ما ، يصرخون أمسكنا الإرهابي الذي فجر العبوة الناسفة ، صدق حدسي ، تدافعت بين المحتشدين شاقاً لنفسي طريقاً وسطهم ، بصعوبة بالغة أبعدتهم ، أزحتهم ، تدافعت معهم حتى وصلت إلى الإرهابي ، رأيته ، انه : يحيى المنغولي ! قد فارق الحياة لكثرة ما تلقى من ضربات مميتة ، جسده مدمى ، يمسك بيده اليمنى جهاز التحكم عن بعد خاصته ، مات هادئ البال مطمئناً ، تلقى موته ببسالة ورباطة جأش ، مبتسماً رغم أنف الموت وقد ارتسمت ابتسامة عذبة

فوق شفتيه الشيبهتين بفم السمكة ، عيناه المنغوليتان تطالعاني بحسرة فيها لوعة ، فيها تعبير طفل مرعوب عوقب عقاباً قاسياً ، جثوت عليه غير مصدق ، راحت دموعي تتساقط عليه ، تمطره . إذ أن الناجين يعتقدون انه من فجر العبوة الناسفة وسط السوق ، رحت أصرخ في وجوههم المرعوبة مزيلاً اللبس الحاصل ، أخبرتهم الحقيقة ، مقتله أشعل قلبي بالحزن ، شعرت بنفسي وحيداً واحتضنته ، شعرت بقلبي حزيناً على مقتله في تلك اللحظات غربت شمسه ، ألقت غبارها على قلبي ، انطفأت شمسه ، سرقت منه حياته ، سرقوها ، رحت أبكي بحرقة عليه ، حلمه أصلاح جهاز التحكم والستلايت ليرى العالم ، كان طائراً مكسور الجناح ، كيف يستطيع الخروج من أور ، مر موته صاخباً وبألم كبير ، مرقت فوقنا سحابة بيضاء قريبة غطت عالمنا القاسي ، نظرت صوبها وهي تحجب الشمس الحمراء المتوهجة المستديرة العمودية وسط سماء رصاصية داكنة ، دوى صوت انفجار ثان .

رحلة الشاطر كلكامش إلى دار السلام

- كلكامش لا تعرض. انك لمن الخاسرين، واقصص ما جرى لك في دار السلام على الناس، لكل الناس.
- أنا الشاطر كلكامش أني لمن الخاسرين سأقص عليكم ما رأيت وما شعرت به تماماً كما رأيته وشعرت به ، انه حدث بالطريقة التي أقصها عليكم:
لقد كنت من الخائبين، كنت خائباً في كل شيء، أنا خائب حتى في العاب البنات، إذ كانت بنات محلتنا يتفوقن عليّ في كل ألعابهن، آه كم كنت خائباً ولحد الآن مازلت خائباً، خائب أنا في كل شيء وكما تعلمون الناس لا تريد العصفور الذي يزقزق بل تريد الأسد الذي يزأر وبالنسبة لي أنفقت وقتي كله عصفوراً لا يزقزق، كثيراً ما حاولت في حياتي بلوغ النجاح، النجاح في اقتناص فرصة لتغيير نمط عيشتي ولكن فشلت في أدراك الطريقة الوحيدة التي توصلني إلى ذلك ألا وهي الخروج من طوق الدعة والراحة. وقد اتبعت حكمة أبناء قريتي « الطائر الذي يلوذ بعشه لا خطر عليه من الصياد « ولأول مرة خالفت حكمتي وقصدت مدينة السلام واعلموا أنا بطبيعتي حمار، حمار لأنني أتعثر بالأشياء ذاتها مرتين ولقد أنفقت جل وقتي وان في رد الفعل ولم أكن أبدا فعلاً.
نحن في نهاية عام القرد ، وسندخل في سنة الأرملة، وقلما تتشكل النجوم في برجي برج الجوزاء على نحو ايجابي كما هو عليه حالياً، فالمريخ والمشتري يتحدان ليبعثا في نفسي الشّجاعة أنا الشاطر كلكامش، كانت غلطتي بألف حاولت أن أحيط نفسي بالمجد مثل ايروسترات إذ دمر إحدى عجائب الدنيا السبع بإحراقه معبد دلفي في أثينا كي يخلد اسمه!
فكانت لوعتي على نفسي مثل لوعة الشموع وهي تنير الزوراء ، أول ما

يفعله المرء في بغداد شراء الكتب، قمت بشراء كتب كثيرة بعد تجوالي الطويل في مكتباتها ، رزمتهن في كيس بلاستيكي اصفر، صارت الرزمة أشبه بصندوق والصندوق داخل كيس بلاستيكي، كنت أنوء بحمل كتبي الثقيلات فرحاً، احملهن مسروراً بعدها حاولت الاستمتاع في هذا الجو المنعش بمنظر نصب الحرية ، وبعدها عرجت على حديقة الملك غازي سابقاً وحالياً حديقة الأمة بعد ثورة الرابع عشر من تموز عام ثمانية وخمسين وتسع مئة بعد الألف لأشاهد تحفة خالد الرحال تمثال الأم وبعدها أتطلع إلى رائعة فائق حسن محاولة مني لتذكر أيام دراستي في معهد الفنون الجميلة وأنا في طريقي لمراب النهضة استعداداً لمغادرة بغداد كان الجو ينبئ بالمطر كنت أحب المطر فرائحة المطر تذكرني برائحة من أحب، زليخة، كان شتاءً ممطراً خصباً وكان نهاري نهاراً وردياً جديداً نهضت دار السلام على مثله من قبل، هكذا بدأ الأمر في مدينة السلام لم يكن يوماً ربيعياً استثنائياً بل كان يوماً شتائياً لم يكن خياري استمرار الرتابة رتابتي في يومي هذا أمر محتوم إلا أنني كسرته بالسير والتطلع إلى نصب الحرية وجدارية فائق حسن بينما تغذ الشمس مسيرتها نحو نهاية الأخرى من يومي كان نهاري ممتعاً جداً في بغداد جاء في كتاب (بغداد مدينة السلام) لابن الفقيه الهمداني أن المفكر والفيلسوف احمد بن الطيب السرخسي احد تلامذة الكندي ذكر في كتاب له بغداد : ((أنها مدينة العلم، شريفة المكان، كثيرة الأهل، واسعة الشكل، بعيدة القطر، جليلة الولاية، نبيهة السلطان، ينبوع الأدب ومنبت الحكم، أهلها برد الآفاق وخطباء البلاد، ما فعل فيها من خير فمشهود وما أعلن فيها من شرٍ فمستور، منها الفقهاء والقضاة والأمراء والولاة، اعتاد الخلافة ودار أهل الدعوة، وان لها جنساً من السعادة، ولأهلها نوع من الرياسة، وذلك انه قلما اجتمع اثنان متشاكلان، وكان احدهما بغدادياً، إلا كان هو المتقدم في لطف الفطنة، وحسن الحيلة، لين المعاملة، جميل المعشر، حلو اللفظ ، فليح الحركات، طريف الشمائل)).

بدأت الشمس ، شمس الزرواء اليوم علية ومتعبة كان الجو فيها يتراوح

بين ساعتها من خفيف ذي لون اصفر مشرق إلى خفيف ذي لون اسود غامق، السماء مرشوشة بغيوم بنية بلون الطين، غيوم رصاصية ، وغيوم حمر، تلك كانت سماء بغداد إذ احتشدت فيها الغيوم مؤثثة بحشود المطر، ستمطر مطراً مترعاً بشقائق النعمان، تلك هي سماء دار السلام، بينما أسير فيها مثل سير عقرب الساعة في ساحة التحرير، أمام نصب الحرية وقفت أتطلع خاشعاً ومبهوراً كمن يشاهد نصب الحرية لأول مرة في حياته موجودات النصب كانت بلون سحنتنا ، سمرتنا ، بلون طيننا من قبل كنت أتصور أن اللون يتحلل بالموشور ولأنها مشغولات جواد سليم ومفردات جداريته، فعلمت أن اللون يتأتى وينبثق من الطين ذلك الخلق الهائل حيث خلق منه الإنسان : ((إنا خلقناه من طين لازب)) فتذكرت اليوم الذي مات فيه أستاذي جواد سليم وأنا بعد طالب في معهد الفنون الجميلة كان الجو فيها مثل هذا الجو الآن اصفر معتم إلى خفيف ذي لون بني لذيذ كان يتقدم المشيعين الشاعر الكبير خالد الرحال يبكي وبقوة سار المشيعون من منزل المرحوم في الوزيرية مروراً بالكسرة ومن أمام معهدنا قلت مخاطباً نصب الحرية واعني جواد سليم:

- أذا عدت للحياة الآن ماذا ستبدع؟

فتذكرت ما قرأته ذات يوم ، يوم زار ضابط ألماني الفنان بيكاسو أيام الحرب العالمية الثانية في منزله يوم كانت ألمانيا تحتل فرنسا، نظر الضابط الألماني للوحة إل ((جيرنيكا)) فأعجب بها الضابط الألماني أيما أعجاب، فقال لبابلو بيكاسو:

- أحسنت صنع إل ((جيرنيكا)) يا سيد بيكاسو .

أجابه بيكاسو بذكاء:

- لم اصنعها يا سيدي الضابط بل انتم الذين قد صنعتموها .

كنت منذهلاً ماذا لو استفاق جواد سليم من رقدته الأبدية؟ ماذا سيبدع في حياتنا الآن؟ شاهدت سيارة همفي فوقها جندي أمريكي صوب فوهة قناصته إلى صدري فوق القلب فاكتشفت بأنني اكبر مغفل على وجه الأرض أعيش كالنعامة . مثل النعامة كنت نعامة تدفن رأسها الصغير في الرمال ، فتظن أنها بمنأى عن الخطر خطر الآخرين والآخرون هم

الخطر، وإذا بي مكشوف أمام أذى الآخرين، والآخرون هم الأذى والخطر يداهمني من كل مكان يحيط بي ويترصدني. كنت نعامة تدفن رأسها الصغير توهم نفسها بأني في مأمن. قلبي يؤلمني. يؤلمني حين أرى أمامي الجندي الأمريكي من الفرقة الرابعة مدرعات يقف هو الآخر أمام نصب الحرية في دار السلام مصوباً فوهة قناصته ذات الشعاع الليزري الأحمر فوق قلبي انه قدرنا أن نعيش حروباً لانهاية لها استدرت فأعطيت ظهري للجندي الأمريكي على طريقة النعامة التي تدفن رأسها في الرمال، رمال السلام ، فتذكرت مقطعاً شعرياً لشاعر سومري اسمه ((دنجي رامو)) رحت ارردہ انشده وأنا أتفحص تفاصيل نصب الحرية، حتى كأن ما قاله قبل خمسة آلاف سنة هو نفسه ما يقوله شعراء العراق اليوم، فأي دوامة لعينةٍ لم يبرأ منها هذا الوطن:

واحسرتاه على ما أصاب لكش
وكنوزها
ما اشد ما يعاني الأطفال من البؤس
أي مدينتي
متى تستبدلين الوحشة بالفرح؟

أمس ، واليوم اطل الصباح البنفسجي نفسه، بنفسجي خالص مطلي بلون الزعفران وهدوء غريب يسود ساحة التحرير مازلتُ أعطي ظهري للجندي الأمريكي معها ارتفعت نبضات قلبي أحس به وكأنه يكاد أن يتوقف، انه قد توقف. اجل! يكاد أن يتوقف، فأبصرت لون السماء: كان بنفسجياً خالصاً وتارة ليلكاً أو زعفرانياً مفرطاً في الجاذبية وكان الفضاء أيضا بنفسجياً مائلاً إلى الليلكي الجميل، يزداد انفراجاً حتى يتسع فينداح ، ينداح فيتسع ثم يتسع حتى يحل أول الضحى ، كان نهاراً زعفرانياً بأناقة باردة، وتحد بارد، وعقرب ساعتي يهرول مسرعاً ناحية الضحى ، ضحى هذا اليوم ببريق قصف الرعد الجاف، شعرت أنني ازداد توتراً بدأت يداي بالارتجاف لزمن قصير، صمت فتوقفت ثم واصلت سيري ناحية حديقة الأمة حالياً، وحديقة الملك غازي سابقاً ، تلك الحديقة التي غير اسمها مرتين مرة غير اسمها منذ ثورة الرابع عشر من شهر تموز سنة ثمان

وخمسين وتسع مئة بعد الألف، وتغيرت معالمها بعد الخراب والتدمير عقب أحداث عام إلفين وثلاثة . ضوء الشمس مازال بنفسجياً ساطعاً من خلف غيوم زعفرانية قلت بما يشبه الاحتجاج:

- كيف هي الحياة يا أيها الشاطر كلكامش؟

ازداد اشتعال حتى صار بارقاً غزيراً كثير البرق، والسماء التي شطرها إلى نصفين مكفهرة مبللة، منفرة وثقيلة ذات لون ازرق رمادي كلون حمامة اورفلية.

اصطبغت الأشياء كلها بلون الزعفران، معالم حديقة الأمة ونافورة البط والناس وتمثال الأم والشجر والموجودات تلونت رؤوسها بالأزرق الممزوج بالوردي المائل إلى الليلكي، رحت أصغي إلى ضربات الخوف التي أخذت تحتلي ولا يزال الخوف يسكنني ، فعلمت لحظتها أن الموت بشكل عام يجعلها أكثر يقظة لنبض الحياة وأنا رجل يعيش على معتقدات قلبه وقناعاته تحت شمس ضحى الخميس ، غرة ضحى الخميس كانت ساحة الطيران ضاجة مثلنا كالحة، والناس في الساحة يحثون الخطى مقتربين من بعضهم البعض ومبتعدين عن بعضهم البعض.

ما أروعك يا دار السلام وصلت مكان اصطفاف سيارات النهضة، لا احد في سيارة الكيا إلا السائق خارجها ينادي: نهضة .. نهضة. صعدت السيارة بيدي كنزيٍ الثمين: كتبي، داعبت مسامعي أنشودة الهام المدفعي الجميلة جداً والمحببة إلى قلبي : موطني .. موطني .. موطني.

وضعت كيس كتبي الأصفر على المقعد الذي خلف السائق مباشرة بانتظار مجيء الآخرين القاصدين مرآب النهضة، في مثل هذا الوقت وقبل خروج الموظفين من أماكن عملهم يكون عدد الركاب قليلاً وكون اغلب عامة الناس من الكسبة في أعمالهم، والأغلب الأعم من الناس يتبضعون في مثل هذا الوقت، رحت انتظر ، طال انتظاري فترجلت من سيارة الكيا واجهتني مهيبة شامخة رائعة للفنان الكبير المرحوم فائق حسن، رحت أتأملها ، العمال الذاهبون للعمل والفلاحون الذاهبون للحقل، القفص مفتوح والطيور المتحررة بيد زليخة . آه . يا زليخة ياللاسى في

تلك البارحة القديمة قادتني الحرب من ياقتي، ياقة قميصي المدني بعيداً عن زليخة ، زليخة التي أحب كنت غض العود شاباً ارتديت الخاكي وهناك، هناك فقط في الحرب في جبهة القتال أثناء المنازلة واشتداد القصف تعود أحزاني إلى الناصرية، وملامحي السومرية التي تتجعد كالحمامة الاورفلية تعودان إلى زليخة، لان زليخة التي اعشق كانت بداخلي حية، حية زليخة تنبض حلوة سمراء كنخلة عراقية لها عينا سوداوان واسعتان مثل شبعاد شابة أبدا تعزف على قيثارة قلبي، كانت زليخة شبعاد شابة أبدا مثل حياتي التي سرقتها الحروب.

وصلت أمام جدارية أستاذي فائق حسن انحنيت بكل قامتي لها ، انحنيت فتذكرت ذات يوم حينما كنت في النمسا وأنا أتجول في احد شوارع فينا القديمة كان الجو بنياً مشوباً بالصفرة مر موكب إمبراطور النمسا فتوقف كل من في الشارع، جاء وقوفي لتحية الإمبراطور قرب بتهوفن، كان بتهوفن واقفاً على الرصيف وأنا بجانبه، ألحظه بطرف عينّي السومريتين مسروراً، مر موكب الإمبراطور من أمامنا رفع الناس قبعاتهم احتراماً للإمبراطور كما هي عادتهم للتعبير عن احترامهم للشخصيات السياسية والاجتماعية الكبيرة، مثلهم أنا فعلت رفعت قبعتي أنا عربي. لكن بتهوفن لم يرفع قبعته وبقي متوتراً عند مرور موكب الإمبراطور التفت رجل واقف إلى جانبه، وقال لبتهوفن:-

- يا سيد بتهوفن. لماذا لا ترفع قبعتك احتراماً للإمبراطور؟

أجابه بتهوفن باعتزاز:-

- اسمع يا هذا أذا مات الإمبراطور فهناك ألف رجل يستطيع كل واحد منهم أن يكون إمبراطور. لكن أذا مات بتهوفن فمن يستطيع أن يخلفه من أبناء الجنس البشري في الموسيقى؟ فتساءلت في نفسي من سيخلف جواد سليم، فائق حسن، خالد الرحال، ومحمد مهدي ألجواهري، بدر شاكر السياب، محمود بريكان، بلند الحيدري، غائب طعمه فرمان، محمود جنداري، مهدي عيسى الصقر، وجليل القيسي في صورة الفنان الحقيقي؟ من؟ وقفت و جدارية فائق حسن مواجهين للحياة لاتجاه شروق الشمس،

بعد شروقها، الشمس التي لمست بعد شروقها رأسينا، أعلى الجدارية، وراسي، وانزلقت على جسدينا: جسد الجدارية، وجسدي ثم التقت علينا لمعانها البهيج مثل بساط لامع تحت أقدامنا حقا كنت مبهوراً ومبتهجا بتلك الرسومات ذوات الألوان الجميلة التي أبدعتها أنامل فائق حسن، رغم الجو المنبئ بالمطر ارتجفت خشوعاً، انخلع قلبي من مكانه، نظرت وتلفت بشدة حولي، عاودت الالتفات بريبة وقلق كبيرين، كانت ساحة الطيران صامتة خالية إلا من صوت الهام المدفعي وإياي، وقف الناس بعيدين جدا قرب قواعد تماثيل ثورة مايس نظرت أليهم بقلق، وكان سائق سيارة الكيا التي حجزت فيها كان أكثرهم إصراراً وانفعالاً على مناداتي، في البدء لم افهم الأمر جيداً، ولم أفسر حركاتهم ونداءاتهم التي تدعوني للقدوم ناحيتهم، فانا حمار بطبيعتي، المهم، فقد بدا الأمر طبيعياً بل أكثر من الطبيعي، طبيعي جداً، طبيعي كمعرفتي تفاصيل وجهي، لم يكن الأمر غريباً أن ينادبني الآخرون، وليس بإمكاني أن أخمن سر إصرارهم على مناداتي، رايتهم مصرين على أن أكون بقربهم أن اذهب حيث هم، حثثت الخطى نحوهم بعد أن غادرت روحي بلادها، مشيت بمشي ازدادت التساؤلات، سألتهم بصوت تخالطه رعشة واضحة:-

- ماذا هناك؟

صمت الناس، صمتا مجبرين عليه، تغيرت معه ألوانهم، ألوان وجوههم كان خوفهم أسطورياً بينما كان الناس يتصورون بلادتي مشاكسة صبيانية، قال سائق الكيا محتّداً وبعصبية واضحة جدا حد الصراخ علي وعيناه جاحظتان في وجهي، ووجهه يستعير صفرة وجوه الناس الخائفين قربة، صرخ:-

- هناك عبوة ناسفة في سيارتي!!!

قالها وقد بانت طبقة بيضاء في زاوية فمه وهو يشير بإصبعه الغليظ طويل الاظفر إلى سيارته، الأطفال المشاكسون مرعوبون من حديث العبوة الناسفة، حديث الموت كانت راحات أيدي المشاكسين الصغار تجفف خوفهم في عيونهم قبل خوفهم في وجوههم لازالت غارقة

في ما صنعت، فيما يجري و جدارية فائق حسن تنطلق منها طيور الحرية إلى الخلف حيث تمثال الأم إلى الوراء حيث نصب الحرية، أعاد السائق ما قاله عليه ثانية:-

- أرأيت العبوة الناسفة في سيارتي موضوعة خلف مقعدي مباشرة ؟

التفت خلفي، ناحية سيارة الكيا، تقع عيناي على زليخة المرأة المياسة التي حررت الطيور من جدارية فائق حسن، تبتسم المياسة تضحك ضحكاً مسموعاً تنشر موسيقاه في أذني، كنت اسمعها ابتسمت، تركتهم مغادراً تجمعهم لأجلب كتبي، كنزي، وأنا اضحك بفرح طفولي مشاكس، شككت أن قطرات من المطر بدأت تتساقط، ابتعدت عن حشد الناس قليلا، وقطرات المطر تقذفني الحمائم البيض تحلق عاليا، بعيداً، بعيداً جداً، عالم غريب قد داهمني، ابتعادي وضحكي أزادا غضب الناس امسكوني عنوه وبقوة محاولين منعي من الذهاب، وكسر عزمي، الحمائم البيض والغيوم مع الحمائم ذوات اللونين الأزرق والرمادي تضرب سماء بغداد، انكسرت نظراتي، سالت نظراتي من جدارية فائق حسن على الإسفلت المترب على ساحة الطيران، وتجمدت عند حذائي، تساقطت فجأة قطرات من المطر محدثة صوتاً عالياً ، كان الشتاء مدرار المطر، رفعت راسي ولمحت تلك الإضاءة النادرة التي برقت على محيا الناس رغم الخوف، حدث استنفار كامل، استنفرت عيونهم وجذور قلوبهم، وهناك في الشرق أمامي بدا شق وردي ضيق يقسم السماء نصفين وعلى جانبه كانت الغيوم الرمادية تمرح بجذل، فكأن السماء (ألقت ما فيها وتخلت) فكان بالفعل شتاء كريما ومدرار المطر، فقلت ببلادة:-

- أتقصد الكيس الأصفر البلاستيك الكبير؟

أجاب بنفاد صبر:- نعم

قالها بشدة ونفاد صبر، فكررت عليه سؤالي ثانية وبكل برود وبلادة غليظتين:-

- أتعني الكيس البلاستيكي الأصفر الكبير الذي خلف مقعدك؟ يرفع صوته وعجب كبير يلتمع في عينيه اللوزتيين، وخداه اللذان عادا بلون

الطين. لكن نبرة العجب واضحة في صوته يصرخ بعنف وبهيجان :- نعم . سحبني من ذراعي اليسرى، لم أعارضة، لم أساله ثانية عسى أن يفصح عن غضبه وعلام هو غاضب، امسك بخانقي وراح يخنقني بقوة يخنقني كانت أصابع يديه قوية غليظة متسخة ويضغط بقوة.
ينظر السائق بعيني بحدة وقد تغيرت سحنة وجهي كثيراً . لم أفكر بسقوط المطر، سقط المطر فلم اكترث لسقوطه، لقد افسدوا علي استنشاق رائحة جسد زليخة حبيبتي مع رائحة المطر، شاهدت طيور فائق حسن السجينة وهي تغادر قفصها وتغني أغنية الحرية، طار قلبي هلعاً حين اقتربت منه، الجميع ينظرون إليه والي مندهشين، كان يريد أن يميتني لبلادتي، أن يهشم راسي الغبي ليسفح دمي فوق ساحة الطيران فوق بقايا لقواعد المسروقة لقادة ثورة مايس، فوق جدران فائق حسن ، فوق الناس ، حتى تصبغ دار السلام كلها بدمي الأحمر القاني، اللون الأحمر هو الملائم الآن. الموضة اليوم لون الدم الأحمر كل شيء يفضح دمنا الأحمر .
تدخل الناس لتهدئته ، معها قل انتفاخ أوداجه ، وناشدوه بان يتركني لحال سبيلي قبل أن أموت بين يديه . شخص بصره نحو البعيد وهو يستغفر اللّه، فحمدت اللّه لتركه رقبتي ، رحت أعب الهواء عبا ، توقف أمامي مباشرة لازال غضبة رطباً مبللاً بالمطر المدرار الذي انهمر علينا، دفعت عيناه باستنشاق الهواء ثانية، لم تدمع عينا السائق ركز نظرة رجولية متحدية بعينين الدامعتين رأيت من بين دموعي شفتيه تتمتمان بحنق:-
- مشاكس .
فأجبته من خلال دموعي:-
- المشاكسون هم المقدامون في الحرب.
الشمس تسحب خيوطها مع آخر حبات المطر تتجمع في بقعة حمراء تخلفت في رماد السماء لوناً وردياً خفيفاً كأنها لون بني يذكرني بلون الطين توقف انهمار المطر تماماً ابيضت أعين الناس في ساحة الطيران لسماعهم ما قلت:
- انه كيسي وفيه كتبي التي اشتر.....

في البداية كان الصمت، بعدها سرى النبأ في ساحة الطيران فحرك سكونها وترقبها تراكض الناس نحوي واستجابوا لتلك الجلبة فشارك النبأ برفع أصواتهم وراح صغارهم يقذفونني بأقذر الشتائم، فاض السيل ، سيل الكبار متدافعاً بالأكتاف يضربوني ، أنا بالتأكيد لم اقل شيئاً يجعلهم يضربوني وعيونهم قاسية تشع غضباً عنيفاً قد أشعل النار والغضب في عيونهم وأوقدها في قلبي بعد أن كان لون وجوههم شاحباً صار لونهم احمر، ارتجفت، ارتجفت أصبحت ألوان وجوههم حمر بلون الغضب، وفاض سيل الكبار متدافعاً بالأكتاف وبالأيدي وبالمناكب يضربوني وبالرؤوس ينطحونني ويركلونني على شكل جماعات غير منظمة وعضوية، حزينة هي المرأة المياسة زليخة حبيبتي التي حررت الطيور من قفصها في رائعة فائق حسن لانهيال مطر الضربات والركلات والبصاق والشتائم عليّ، سحبت يدي اليمنى التي تقطر دماً سحبتها شددتها بقوة سحبتها كي لا أعيد ما فعلت لأنني ندمت بعد أن اكتشفت بأنني الخاسر الوحيد في كل الذي قد جرى لأنني لم التزم بحكمة أبناء قريتي: - الطائر الذي يلوذ بعشه لا خطر عليه من الصياد .

فكنت بعد ضربات الناس وتقريعهم لي مثل صاحب الحوت منبوذاً في ساحة الطيران . الجندي الأمريكي من الفرقة الرابعة مدرعات أشاهده من بين أقدام وأيادي وسقيان الناس، قبالتي، وقد جعلته أمامي وجعله كل الناس خلفهم وجعلنا كلنا تحت فوهة رشاشة وما زالت أنشودة الهام المدفعي تصدح في رأسي : موطني ... موطني ... موطني .

وأبناء وطني يضربونني ويصرخون بصوت غاضب هادر عالٍ:-

- إرهابي .

إعلان وفاة ليْلى

يقولون ليْلى في العراق . . .
. . . أرملة ، كأهل العراق ولدت حسب تعداد ١٢/١٠/١٩٥٧م ، في الأول من تموز ، تموز العراق ، تموز بلاد ما بين النهرين ، تموز الخصب ، دموزي ، كانت وزوجها يعيشان ببغداد يوم كانت سلاماً ، طلب منها زوجها أن تهيئ له طعام العشاء في غروب الأحد ، كان غسق يوم الأحد يتكوم على رؤوس نخيل الكرخ والرصافة ، ليلتها شهد كوكب الأرض أوضح ظهور للقمر ، ((والقمرِ إذا اتسق)) ، كان القمر في أقرب نقطة له من كوكبنا لهذا العام ، كان القمر أكبر من المعتاد بنحو أربعة عشر في المائة ، كما أن بريقه أزداد بواقع ثلاثين في المائة مقارنة بالأيام العادية من السنة ، وليلتها ، ليلة الأحد كان القمر على بعد نحو مئتين وواحد وعشرين ألف ميل فقط عن الأرض ، عادت ليلى إلى زوجها بطعام عشائه ، رأته جثة هامدة ، وافته المنية ليلاً ((والليل وما وسق)) ، ليلة يوم الأحد المشؤوم بسبب أزمة قلبية ألمت به ، ((وَأغطَشَ ليلها وأَخرَجَ ضحها)) ، تنهدت ليلى وعيناها الآشوريتان حزينتان تشعان بنظرة حزن ساخر يشتد لمعانهما على وجهها وهي تقول لي بنظرات صافية متلألئة :-

- فقدان زوجي أصبح ذكرى منسية .

((والصبحِ إذا تنفس)) ، نور النهار سطع مشرقاً من شمس ناضجة

، الشمس تبدو فوقنا قاسية وصلفة ، وقاسية هي حياتنا وموجعة ، وجعها من جنون وجمر ، مؤلمة قسوتها ، وكم موجع حزن الناس في هذه الحياة ، كانت ولا زالت حياتي مجموعة كاملة من الحرائق والضياعات حيث أعيش بائساً منكسراً حزيناً مثل أي واحد من العراقيين . مثلهم مقهوراً ومحبطاً وكئيباً . لكن . ليلى بزغت في عقلي ، ليلى البائسة والمنكسرة والحزينة ، أضاءت في عقلي الحياة ، سألتها باستغراب ملؤه الفضول وأنا أجس نبض حزنها فوق معصم مأساتها :-

- كيف نسيته ؟

اتسعت عيناها حتى اكتملت دائرة الحزن فيهما ، راحت تقص علي نبأها بحرقة ومرارة :-

- بسبب إصابة أبني الصغير بمرض نفسي بعد انفجار سيارة مفخخة في مكان قريب جداً منه ، في بغداد أثناء توجهه إلى عمله ، حيث قتل وأصيب العشرات من الأبرياء . . .

لذت بالصمت ، كنت أقف أمامها بصمت كامل ، أرتقب منصهراً في هذا الحزن الذي ينطق ، احتشدت بحزنها ، وتشبعت ، تشبعت بألمها ، مثلما أتشبع بالضوء ، كان الفضاء البغدادي أمامي صافياً ، فضاء أبيض مثل نقاء البلور ، مشبعاً بلون معدني ، ضوء نقي ساطع بشكل استثنائي يشع قوة متقدة من شمس تتألق فوقنا ، كنت أتنفس بصعوبة حتى أكاد أن أبكي أمامها ، أمام هذا الحزن الذي يتغلغل في روحي ، ويسيطر على ذاكرتي مع بكائها الأسود ، وصوت أرتجافاتها المتواصلة المرة ، كانت تنشج بمرارة تشبه أنفجارات متقطعة تصدر من قلب بغداد النابض بالناس ، ليس من اليسير علي تجاهل ما أمر به من عذابات الناس وآلامهم أثناء عملي ، رغم أنني أخذت بنصيحة جدي الذي أكد مراراً علي حين يأخذني معه إلى الجامع :- ((ثلاث لا بد أن تستقر في ذهنك : لا نجاة من الموت ! ولا راحة في الدنيا !! ولا سلامة من كلام الناس !!!)) . ترى أية مفارقة يضعني فيها القدر أن أشاهد وأعيش وأعايش

موت الناس يومياً ، أعيش كل ما هو ناتج عن القاتم والعنيف والوحشي ، وأظل أستدعي هذه الصرخات ليومي الدامي يومياً ، أعيد مشاهدتها ليلاً ، أقلب في خلدي صور موتنا العشوائي التي تجعلني ملوماً محسوراً . وكأني قتوراً ، ترى أهذه هي الحياة التي كنت أركل بطن أمي لأجلها ؟ . . . فأنا أتساءل سؤالك يا جبران بن خليل جبران ، وأنا أعيش هلوعاً جزوعاً . ليلى لا تتحدث إلا أن وجهها الموصلي الذي كان يحكي الكثير الكثير . . . رددت في سري ما انشده أمل دنقل ذات نكسه :- ((سيعودون ، فلا تبكي / فما يرتضي المحبون أن تبكي الحبيبة)) ، أحسست بندم ، بان على وجهها بعض الضيق وهي تستطرد مضيفة بصوتها المكسور وهي لا تقوى على مسح دموعها بيديها :-

- . . . منذها ، وابني الشاب شارد الذهن ، يبكي ويضحك دونما سبب . . .

أفلت ، فساد الصمت لحظة ثم قالت بمرارة :-

- فقد ولدي عقله .

أحسست في تلك اللحظات بأنني يبور ، كأني بوراً ، أبور لمرأى الدم ، أيأس ، يائس أنا ، وهذا ما يعذبني ، هزت رأسها . سقطت دمعة بهدوء حزين ، تابعت كأنها تكلم نفسها بصوت فيه نبرة خذلان واضحة وأكيدة :-

- خلصنا عمرنا نقول :- من الباب إلى المحراب فرج ، وألف عمامة تتبدل . لكن ! غادرنا بغداد صوب الموصل ، حيث مسقط رأسي ، وهناك يعيش أهلي ، لأننا لا نملك موطئ قدم في بغداد .

ظللت حائراً ، لم تمهلني ، خرجت كلماتها من فمها بشكل آلي :-

- أفتتح ابني البكر محلاً لألعاب الفيديو (الأتاري) .

لمحت انفعالاً متنامياً على وجهها الحزين كقمر الأحد ، القمر الحقيقي

المكتمل الاستدارة ، تابعت بصوت مقتضب :-

- **وابنتي ذات الثلاثة عشر عاماً بدأت دوامها بمدرسة ، وتزوج ابني . . .**

صمتت ، فحظيت بابتسامة ناعمة رحيمة قل العثور عليها على وجه عراقي في السنين الأخيرة حيث يشاع عن العراقي أنه فقد موهبة الضحك . هناك ضحكة ساخرة أطلقها غوغول :-((سأضحك ضحكتي الساخرة)) . أطلقت ليلى ضحكتها المرة ، مطمئنة القلب ، وقالت :-

- **واعتقدت إن الحياة بدأت تبتسم لي بعد ولادة أول أحفادي .**

لمحت في عينيها الياقوتتين السوداوين أنهما أتقدتا ناراً ، عيناها جمرتان فوق وجنتيها تومضان مثل نجمتين من نجوم الظهر في تموز العراق ، تقلصت ملامحها ، ملامح وجهها فيما يشبه الألم ، ثم قالت بصوت ناعم مشروخ :-

- **إن القدر النحس أبى إلا أن يلحق بي إلى الموصل .**

فتحت عيني بقوة وأنا أحدق في عينيها بدهشة ، وقد وجدتهما تلمعان بقوة زادتهما حزنا وانكساراً ، فصار وجهها أكثر بؤساً وأشد جزعا ، سألتها بلهجة مشددة ، وباقتضاب :-

- **كيف ؟**

تصلبت تعبيرات وجهها الجريئة وأصبحت أكثر قسوة ، اتسعت عيناها جافلتين من الرعب ، فأجابت بنظرة كسيرة من عينيها وبصوت فاتر محبط :-

- **توفيت ابنتي البالغة بسكتة قلبية مفاجئة بعد أن خطبها داعشي صيني .**

في رأد الضحى شمس بغداد النحاسية عنيدة تصبغ الحياة بضوئها النحاسي القريب من لون النار ، نظرت ليلى إلي بتمعن وفي وجهها نظرة ساخنة وهي تستطرد لآوية فمها الشاحب وبصوت حزين وعيون غارقة

في الدموع قائلة :-

- **وردني اتصال من ولدي البكر من محله بالعاب الفيديو . لكن ، كان المتحدث شخصاً غريباً ، قال لي بعصبية تعالي إلى الدكان قبل أن نقتل أبنك . . .**

سماء الزوراء ممتدة أمامي صافية . صار الحر يطبق براثنه الملتهبة علينا ، لم يبق لليلى سوى ذكريات الماضي دمدمت بما قاله جواد سليم ذات لحظة تأمل ، رمقتني بنظرة متفحصة وأجهشت بالبكاء ، تلألأت دموعها في عينيها المغمستين بضوء النيونات ، تابعت حديثها بصوت واثق ، وهي توزع نظراتها المليئة بالدموع علي :-

- **هرعت إلى محله ومعي ثلاث نسوة من جيراني وحفيدي الذي أحمله على ذراعي ذي الثلاث سنوات ، كان الوقت بين العصر والغروب ، وصلنا ، وما أن اقتربنا من عتبة باب الدكان دوى صوت انفجار هائل . . .**

كنت لحظة حديثها مثل سحاب مركوم ، تراجعت ، تراجعت عيناها كما تراجعت عيناي عنها . ذبل وجهها كما ذبل وجهي ، تسرب إلي يأسها ، رحت أحدق في سقف الغرفة بعينين نجلاوين متعبتين مرهقتين ، ومشاعر الإحباط تعصف بروحي ، انهمرت دموعي متساقطة بتعاسة ، انكسرت ، فقدت سلامي الداخلي ، لحظتها ، فقط ، عرفت أن الحياة هزيلة ، إنها فظيعة ، نعم ، مقرفة ورديئة ، قالت بيأس وحيرة :-

- **غبت عن الوعي الذي لم أستعده إلا وأنا هنا بالمستشفى .**

وطني مملوء رعباً وقلقاً وموتاً ، كان بلداً مليئاً بالمتناقضات جميعها ، الفرح والحزن ، الحياة والموت ، الشجاعة والجبن ، العلن والسر ، بلدنا يظهر ما في جعبته كله دفعة واحدة ، دونت ذات وطن الشاعرة الموصلية منال الشيخ عبارة استوقفتني ، ما نصه : ((طوال عمرنا نرى خارطة العراق موّحدة على الورق فقط ولكن لا صلة روحية بين الشمال

والجنوب مهما أدعينا ذلك)) ، كانت بالكاد تسيطر على نفسها أثناء محاولتها سرد تفاصيل مأساتها ، كنت أراها تتعذب ، تذكرت فرانسوا موریاك حين أخبرني بسر : (أطمئن ! الذين لن يموتوا سيكون لديهم الوقت الكافي ليتعذبوا)) ، فتقول ليلى :-

- أن الإرهابيين كانوا قد هددوا ابني بالقتل في حال امتناعه عن دفع الأتاوى لهم .

الوقت منتصف النهار ، كانت ليلى مثل فرس جريحة رمقتني بنظرة من عينيها الساخطتين المسلطتين على عيني الدامعتين لأجلها ، تابعت بنبرة كسيرة مخذولة :-

- بعد امتناعه عن دفع الأتاوى ، وضعوا له عبوة ناسفة بدكانه . . .

كان يوماً عسيراً علي ، وجدتني أحادث نفسي بينما أتطلع إلى ليلى التي بدأ يكسو وجهها الأبيض لون البرونز ، لون برونزي أنه : لون الموت . أنشدت في سري :-

- أبيات لشاذل طاقة :- ((حزينات ليالينا / وليس بأفقنا نجم ولا قمر / ومجدبة مراعينا / وبياراتنا صفراء تنتحر / مقطعة أيادينا . . / وفوق قلوبنا صخر / كأن عذابنا قدر . . .)) . آهٍ . حياتنا . حياتنا ظل زائل . كظل طائر حين يطير لا طائر ولا ظلّ .

تأثرت لمرأى الشمس من نافذة الصالة تهبط لتسرح شعرها ألدخاني الأصفر المشوب بنار نحاسية فوق نخيل ذات أكمام ، نخيل حزين ، وحزن النخيل ذات الأكمام أبيض قديم ، قدم ألمنا الأبيض ، كانت أشجار النارنج تستريح بفيء ظلال النخيل ، وبدا وجه ليلى البرونزي يسبح بالضوء ، أرتج جسدها ، لم يعد وجهها برونزياً ، صار داكناً ، تحت ضوء النيونات ونظرها صوب سماء ذهبية واسعة ، نظرت إلي نظرة مرعبة ، نظرة قلق ألتمعت في تينك العينين الضاريتين الملبدتين بالدموع التي

يحيط محجريهما الأزرق الشاحب ، الشمس تهبط أكثر ، انتبهت إلى الشمس تغمر الصالة ، وأن رحلة عمرها قاربت محطتها الأخيرة ، خفق قلبي بشدة وأنا أرى عيني ليلى أغرورقتا بالدموع التي أمطرت وأغرقت وجنتيها الشاحبتين وأنا أسمعها بكل جوارحي تنطق بلهجة باترة باكية والابتسامة المريرة على شفتيها الشاحبتين المثيتين ثنية الم وحسرة مرتين :-

- فجروا العبوة الناسفة أثناء دخولنا الدكان .

وقفت ملوماً مدحوراً ، بكيت مذموماً مخذولاً بعد أن أصبح كل شيء عندها عازفاً عن الحياة . كل يوم يزداد جسدها وهناً على وهن منذ أن جلبتها فرق الطبابة العسكرية من الموصل إلى مستشفانا في بغداد. يقولون ليلى بالعراق أصيبت بساقيها وساعديها حيث سأقوم الآن ببتر ساقيها وساعديها باعتباري الجراح المشرف على حالتها الصحية لأنها لم تستجب للعلاج . أما النسوة الثلاث اللواتي كن بصحبتها أصبن بجراح متباينة ، هذا فضلاً عن موت حفيدها الذي كانت تحمله بين ذراعيها .

حقيبة الإرهابي ذي البذلة الأنيقة

أصوات قرع نواقيس كنيسة الأرمن الواقعة بداية شارع النضال، تطرق سمعي بعدما خلّفتُها وراء ظهري ماشياً. خطوتي بحجم مساحة بغداد في اتجاه ساحة الطيران، كأني فلّاح أحرث ابتسامتي في وجوه المارة . انعقد الصبح وأنا وحيد، وضائع مثل ضوء في الضوء . صباح بغداد يفتح كل نوافذ البغداديين . أسمع أصوات ضرب النواقيس التي أعطيتها ظهري، لتصيبني أصداء أجراسها الحزينة القديمة المنحدرة إليَّ بالحنين، محمّلةً ذكريات زمن جميل، وعواطف صادقة، يوم كنت طالباً في عاصمة الدهشة، قادماً إليها من أور، مرتدياً قميصي الأبيض الناصع، وذكريات حبّ منسية إبان الدراسة الجامعية تعصف بروحي، لتملأني بسلام جديد؛ سلام بغدادي يشبه صباحاتها الربيعية الجميلة . أسمع صوتها هذا الصباح فينتابني شعورٌ باليقظة لأنني فيها، وأنا أمرّ ماشياً على رصيف الشارع، من ساحة التحرير حتى جسر الجمهورية . نهاية محلة البتاويين، لازمني شعورٌ بأن أكون يقظاً لأنني في بغداد . أمشي مشرقاً صوب سوق هرج الباب الشرقي، ماراً بفرح كبير أمام واجهات استوديوهات التصوير، وإلى جانبي الأيمن حديقة الأمة، قاصداً ساحة التحرير . ما دمت في بغداد، تستبد بي مثل هذه الحال .شمس دار السلام تكاد تأخذ وضعها العمودي فوقنا. باحمرار خفيف يشع ضوؤها شاسعاً وسط سماء زرقاء واسعة مدهشة . يلفت نظري رجلٌ حلو القوام، رشيق، طويل، مرفوع الرأس، يرتدي بذلة أنيقة فاخرة جداً. الرجل واقف، يتصل متحدثاً بصوتٍ عالٍ عبر هاتفه النقّال

الثمين، قرب قدمه اليسرى حقيبة دبلوماسية سوداء . تستوي الشمس عمودية ساخنة . رجل البذلة لا ينحني للشمس الغاضبة، وأنا الذي ينحني لكل شروق شمس، لا أعرف السبب الذي يجعلني أنظر إلى ذلك الرجل ممسكاً هاتفه الجوّال الفاخر بيده اليمنى، واضعاً إياه على صيوان أذنه اليمنى البيضاء الكبيرة. تحيط بي عيون عراقية تعكس الضوء بلونها الداكن . ذلك كلّه، والرجل يتكلم بصوتٍ عالٍ، مخاطباً الرجل الآخر الذي يقيم الاتصال معه، وثمة وجوهٌ مشرقة، مسفرة، ضاحكة، مستبشرة، ووجوه مغبرة، ووجوه صامتة منتظرة:

-كيف آتي إليك وحقيبتي مكتظة بالدولارات؟!

تطلّ شمس الزوراء مزهوة مطمئّنة، ترسم تفاصيل خطوط ثوب عرسها الأبيض الواسع، تحوكه من غزل ضوئها الأبيض الوافر .بنظرة جانبية من عيني، أرى ملامح شخص شاب يمشي بخطوات سريعة أقرب إلى الجري في ممرٍّ ضيّق محاطٍ بأشجار الرازقي، قادماً من قلب حديقة الأمة، صاعداً بلاطات نصب الحرية البيض .أسمع صوت الشاب واضحاً يتحدث عبر هاتفه:

-أخاف أن أسرق!

حرارة ثقيلة تبعثها محرّكات السيارات السريعة داخل ساحة التحرير. حرارة الجو وموجاتها الحارة المتغيرة تجعل عرقي يتصبب بغزارة فيتساقط على قميصي الأبيض الناصع . يصل من أقصى حديقة الأمة، الشاب الذي يمشي سريعاً . الرجل ذو البذلة الأنيقة الفاخرة واقفٌ بثباتٍ في مكانه تحت نصب جدارية الحرية، مستمراً في إدارة حديثه مع محدّثه بصوت عال . قبل أن يكمل رجل البذلة الأنيقة مكالمته الهاتفية، شابٌ حديقة الأمة الذي يرتدي ملابس رياضية وينتعل حذاءً رياضياً، ينهب حقيبة الثري، الذي لم تصدر عنه أية استغاثة أو صيحة لطلب

النجدة . أقطب حاجبيَّ مستغرباً .رجال شرطة ساحة التحرير، يرابطون في مكانهم لاهين مطرقي الرؤوس في تصفح هواتفهم الذكية. عينا الرجل الثري تضحكان وهو ينظر إلى اللص الذي يجري مبتعداً بسرعة شديدة ناحية سوق هرج الباب الشرقي . بعد أن يعبر الشارع من ساحة الطيران الذاهب صوب شارعي الجمهورية والرشيد أو جسر الجمهورية، يزوغ داخلاً حشد الناس شاقاً لنفسه طريقاً بينهم، فرحاً بسرقته .وسط حشد المتبضعين في هرج الباب الشرقي، يتناول الثري ذو البذلة الفاخرة هاتفه الخليوي الثمين فتضغط أصابعه الطويلة القاسية بغيظٍ هائلٍ على أرقام لوحة مفاتيحه متصلاً، ضاحكاً بمكر وكأنه يلعب لعبةً ماكرة . تمر لحظة قصيرة، أعيشها، ولا أتجاوزها .أرى من قريب الوهج البرتقالي يبرق صاعداً بلهيب أحمر، حازّاً رقاب الناس إلى السماء، محتشداً بشعلة زرقاء محمرة، محمّلة أشلاء المتبضّعين . قبل قليل كنت روحاً مشرقة كالضوء. بعد لحظة صرت ضائعاً مثل ضوء شمعة في مهبّ الانفجار . لم أمت بسبب الانفجار الهائل الذي أشعل السماء بنيران خضر . الانفجار فانوس أضاء الوجوه الصامتة، وألحق الخراب بساحة الحرية، وأزهق أرواح الناس بسبب القنبلة المزروعة في حقيبةِ الإرهابي الذي لم يغادر ضحكته، وهو يرى الفخ الذي أوقع فيه سارقَها.

كلكامش يغني لسليمة مراد

حلت الظلمة شعرها الناعم الفاحم الطويل فوق أكتاف بغداد البيض ، كلكامش ببذلته الأنيقة يسير على رصيف شارع أبي نواس مستمتعاً بهواء دجلة العذب يدندن بأغنية سليمة باشا مراد التي لحنها الفنان الراحل صالح الكويتي : « على شواطي دجلة مر . . . .» ، أنعطف يساراً صوب الكرادة التي يحب ويسكن ، الكرادة فتاة بغدادية حلوة مغناج بضفائر سود وبعينين تشبهان عيون المها .

وصل مترنماً بأغنية الراحل ناظم الغزالي : « يم العيون السود . . « عند مفترق أحد الأزقة حيث مكان رمي القمامة ، احتشدت كلاب تحوم حولها ، داخلها ، تتشممها ، تلعقها ، علا نباحها يمزق سكون ليل بغداد ، إثر مروره .

القمر العراقي منير في عرشه ، تدغدغه غيمات بيضاوات رشيقات ، خطى كلكامش الأنيق تتعثر ، اخترقت أذنيه نباح كلاب القمامة ، أخذ يغني بصوت مرتبك أغنية : « هذا مو أنصاف منك . . . « ، مال يروم التقاط حجر يدفع به شر الكلاب ، فوجئ بالحجر عبارة عن : رأس كلب صغير ، بعينين حمراوين لامعتين كالجمر ، يظهر رأسه ورقبته من أسفلت الطريق ، طارت الرَّاحُ من رأسه ، شهق مرعوباً ، تردد صدى شهقته عريضاً ناصعاً حاداً في الزقاق الضيق المظلم المقوس ، أبتعد بِضْعَةِ خطواتٍ مرتبكةٍ ، أعوج على حجر آخر كيير فإذا بالحجر رأس كلب بفراء أبيض وخطم أسود وبنفس العينين الحمراوين اللامعتين ،

أرتجف ، تضعضع ، تلفت حوله كعصفور تحاصره النيران ، دارت عيناه في محجريهما ، نظر إلى أعلى وجد القمر البغدادي يتكئ مسترخياً على وسادة من غيوم بيض.
أرتفع صوت لهاثه عالياً ، والكلاب تنبح بشراسة ، عيناه عبثاً تبحثان في الظلمة عن حجر ، تقدمت الكلاب الجائعة بنباحها المخيف الممتد نحوه بلا توان ، أرتعب ، أنهار ، لهث ، وراح يشاركها عواءها .

وحدها يد شهرزاد باسقة

بأمرِ ...
الملكِ ...
شهريار ... يتجمعُ أهالي بغدادَ في ساحةِ الفردوس ، كانتْ
شمسُ الزوراءَ شقراءَ تتهادى متعبةً في سماءِ باهتةِ الزرقةِ كلمَّا
أقتربت من المدى الداكنِ الزرقةِ أمتزَجَتْ مَعَهُ في سوادٍ خالصٍ
غريب ، راح شهريارُ يخطبُ في جمهور الحاضرينَ :-
- يا أبناءَ شعبي ... جَمعتُكم اليومَ لأخبرَكم : إنني سأجعلُ
حياتَكم ورديةً ... نعم ... سأجعلُ حياتَكم كلَّها وردية ...

سكتَ الأميرُ شهريارُ ليرى تأثيرَ كلامِهِ في نفوس أبناء شعبهِ ، كان
كلُّ أبناءِ مملكتِهِ حاضرينَ في الفردوس ، مصغينَ لكلام السلطانِ ،
ما إن سكتَ السلطانُ حتى تعالتِ الهتافاتُ تمجدُ السلطانَ وأفعالهِ ،
آستطردَ موضّحاً :-
- عكفنَا جاهدينَ أنا شهريارُ مَلِكِ البلادِ ومعَنا كبيرُ السحرةِ في
المملكةِ بكلِّ إمكانياتهِ ... وتابعُنا الامين وزيرُنا الشهيرُ – قمر–
وسيا ...فُنا، وفقنا في نهايةِ المطافِ إلى تحقيقِ حلمِكم . حلمُنا .
حلمُ شعبنا الصابر المجاهد بأنْ تكونَ حياتهُ ورديةٍ . وما جمعتكم
في هذهِ الجَمعَةُ الكريمةِ المباركةِ إلا لتشاهِدوُا وتعيشوُا معنا
مشاركينَ تحوّلنا إلى الحياةِ الورديةِ .
لاحظتُ نتفاً كثيرةً من الغيوم البيض تعبرُ وجهَ الشمس الذابلةِ ، أشارَ
بيدهِ اليمنى بتعال الملوكِ لكبيرِ السحرةِ أن يبدأ طقوسهُ التي كانَ
معها أبناءُ بغدادُ منقسمينَ بين مرتابٍ خائفٍ ، وبين مصدقٍ مذهول.

* * *

أصبحت حياتُنا ورديةً ... يبادرهُ الوزيرُ قمرٌ بالحديثِ الذي يحملُ بين
طياتهِ مباركةِ الحياةِ الورديةِ الجديدةِ بطريقةٍ مؤثرةٍ :-

- مولايَ الملكُ السعيدُ ها هي حشودُ الفقراءِ ، جموعُ المرضى ، جحافلُ الأيتام ، معاقوا الحرب ، وأراملُ المملكةِ كلُّهم جاءوا إليكَ شاكرينَ ، يشكرونَ صنيعكَ شكراً دائماً . مولايَ الملكُ السعيدُ ذو الرأيِ السديدِ شهريارَ

- المفدى المعظَّمِ . إنهم ينظرونَ إليكَ بإمتنان وعرفانٍ كونك الوحيد الذي جعل حياتَهم ورديةً بعدما كانتْ سوداءَ ... مولاي . جاءَ إليكَ شعبُكَ يبايعُكَ ناذراً عمرَهُ فداءاً لعمرِكَ ...

يتعالى هتاف الجماهير الغفيرةِ التي غصت بها الفردوس ، والشمس فوقهم ذابلةٌ ، وكئيبةَ عند الضحى ، يتقّدمُ سيافُ شهريارَ يتضرّج وجهُهُ حمرةً غريبةً لمنصةِ الملكِ التي خلفَها أفقُ أشقرُ بلونِ شمسِ الضحى إنسابَ فوق نقوش قبةِ جامع ساحةِ الفردوسِ ، قائلاً بصوتٍ مسرحيٍّ عالٍ جهوريّ في أثناءِ استلال سيفهِ :-

- مولايَ المَلكُ السعيدُ ، صاحب الرأيِ الرشيد ... ليأذنَ ليَ سموّكم أنْ ألقيَ سيفيْ تحتَ قدمَيْ معاليكَ ... لقد تحقق حلم الرعيةِ وحلمنا بحياةٍ ورديةٍ رغيدةٍ ... بلا حالمين ....

بينا شهريارُ يتحدثُ لسيافِهِ مقهقهاً :-

- هأ ... هأ ... بُنيَّ . أحتفظ بسيفِكَ فحياتُنا الجديدةُ اليومَ أحوَجُ ما تكون لسيفك.

شهرزادُ هائمةٌ تنظر لشهريارَ ببرودٍ فولاذيٍّ ، شهرزادُ كانتْ صاحبةُ قضيةٍ تجدها اليومَ شاهدة . أكتفتْ بأنْ تكونَ شاهداً في زمنٍ لا يحتاجُ فيهِ لشهادتها ... أكتفتْ شهرزادُ الانَ بإصغاءٍ حياديٍّ باردٍ وهيَ تشاهد حياتَنا ، جعلتَها شمسُ الضحى وردية ، أعادَ سيفهُ إلى غمدهِ مردداً بنفس طريقتهِ المسرحيةِ :-

- سيبقى حسامي رهنَ أشارتكِم مدافعاً ذائداً عن حياتنا الجديدةِ ... الحياةُ التي طالما حلمنَا بها ... لتعش أبداً سعيداً

يامولاي المفدى .

يهتفُ احدُ المزروعين بين الرعيةِ بحماسٍ مفتعلٍ :-

- عاش ...

عاش ...

عاش الملك .

تهتفُ الرعيةُ وراءه وقد صبغتها أشعة شمسِ الضحى بضوئها الذهبي فبدو كأنهـّم من لحمٍ ودمٍ باهتة تمتصَ ما ينعكسُ عليها من أشعةٍ :-

- عاش ... عاش ... عاش الملك .

شهريارُ مبتسماً ابتسامةِ رضاً ... عيناه كانتا تنطقانِ بالغرورِ ... يتبارى الوزيرُ قمرُ ليقولَ بحذلقةِ وفذلكةِ الوزراءِ محاولة منه لكسبِ ودِّ الأميرِ بَعدما قرأ ما جاءتْ بهِ عينيْ شهريارُ الماكرتينِ :-

- مولاي الملكُ السعيدُ ... أدامكَ اللّه لنا ذخراً ...لم يعُدْ في مملكتنا : فقرٌ ، وجوعٌ ، ومرضٌ ، ومحتاجٌ ، ومستاءٌ ، ومعترضٌ ولا حتى حالمٌ ، والفضلُ كلِّ الفضلِ يعودُ لكَ وحدَكَ يامولايَ ... وسيضلُّ شكرُنَا قائماً دائماً لكَ وحدَكَ يامولايَ .

تتبارى حاشيةُ الملكِ لنيل رضا الملكِ بمديحِهم للحياةِ الورديةِ التي لم يَروا مِثْلَها ، تدخَّلَ السيافُ مادحاً باسترحامٍ باهتٍ كأنه عَمَلَ جرماً يودُّ الصفحَ عنهُ :-

- شكرً لكَ شكراً كثيراً ياموليَ الملكُ السعيدُ شهريارَ . إنَّك جعلتَ حياتَنا عبارة عن حلم ، حلمٌ واحدٌ ورديٌّ متّصلٌ نعيشُهُ إلى الأبدِ ... منذ هذه اللَحظاتِ لا يوجدُ مبررٌ لأنْ يَحلُمَ الناسُ بالحياةِ السعيدةِ .. هي ذيْ حياتُنا ورديةٌ سعيدةٌ

بين ايدينا .

يعقّبُ الوزيرُ قمرُ بكلماتٍ جاهزةٍ :-

- **بوركتَ ... بوركتَ يا سيا ... فَنا إنّ ما تقولَه عينُ الحقيقةِ ... إنها الحقيقةُ بكلِّ تجلياتِها ... أنَ حياتَنا التي نعيشها حقاً حياة وردية ... وهذا ما كانَ ليكونَ كلّه لولا همّة مولانا الأمير ...**

وكسراً للمألوف يتدخلُ أحدُ شعراءُ دار السلام شاقاً حشودَ الناس مثلَ عطرٍ يفيضُ حيويةً عاكساً الفرحَ والحماسَ في كلماتهِ الجذّابةَ التي تضمُّ نبضاتِ قلبٍ حر ، قائلاً بنبرةٍ تتدفقُ كما طوفانٍ يجيءُ بالغضب :-

- سنموتُ ... سنموتُ ... سنموتُ يامجانينَ ... لأنَّ الحياةَ بتنوعها ... بتناقضِها ... لا ... بوحدانيتها .

كانَ الشاعرَ وسط الحشود مثلَ زهرةِ الأوركيدةِ الثمينةِ ، سادَ الحشدُ صمتٌ مترقّبٌ، شهرزادُ مثلُ الكلِّ أكتفتْ بالمراقبةِ ، استطردَ بكلامهِ الجذّابِ محرّضاً الرعيةِ للرجوعِ إلى حياتِهم الحقيقية بصوتِ الحلم الصادح :-

- سادتي كُنّا نُمنّي النفسَ بالأماني ... كانَ لكلِّ منا املُهُ . المريضُ بالشفاء ... الجائعُ بسدِّ رمقهِ بكسرةِ خُبز ... الفقيرُ بسترِ حالهِ ... والآ ... ن ... ياأهلي . لا أمل . إذن كيف ستستمر الحياة ؟ سنموت ... إذا لم تكن ...

قاطعهُ أحدُ المحتشدينَ صائحاً من بين الحشودِ بصوتٍ أنهكَهُ التدخين محمّلٌ بعزيمةِ الخنوع :-

- **حتى لو متنا ... سنموتُ ميتاتٍ ورديةٍ .**

يشهرُ السيافُ حسامهُ بارقاً طالباً الأذنَ من مولاه بصوتٍ عسكريٍّ صارم :-

- **مولايَ الملكُ ... إإذن ليَ أن أضربَ عُنقَ هذا الحالم الجديد .**

أشارةٌ رافضةٌ من يدِ شهريارَ اليمنى جعلت السيافَ يعزفُ عن ضربِ

عنق الشاعر ، فساد صمت ثقيل مترقب لم يقطعه سوى سؤالَ شهريار للشَاعرِ بنبرةٍ صارمةٍ :-

- **أما كنتَ تحلمُ بحياةٍ ورديةٍ ؟**

عينا الشاعر واسعتان تلمعان بنظرة التحدي يشتد لمعانهما سطوة وهو يرد بكبرياء وبلغةٍ جارفةٍ شجاعةٍ كالسيل يصدر عن جسدِ الشاعرِ النحيلِ المغمّسِ بضوءِ الشمس :-

- **لا. لم أحلمْ بحياتِكَ الورديةِ .**

خيّم الصمت قاس ، سألهُ شهريارُ بخشونةٍ ومكرٍ وكأنهُ توقع أجابته :-

- **وأشعارُكَ . أما كانتْ كلُّها أحلاماً لحياةٍ ورديةٍ ؟**

أجابه بكلماتٍ شجاعةٍ بعد أن رمقه بنظرةٍ ساخرةٍ إلتمعت في عينيه الواسعتين رغم ضوء الشمس :-

- **أشعاريَ نظمتْ حياتنا ... لا حياتُكَ ...**

يُفاجَأ شهريارُ بردهِ .. أذ أطلقَ همهمةً تعبرُ عما يجيشُ في داخله :-

- **هم ... م م .**

بينا كانتْ أشعةُ الشمس باهرةً ساطعةً تضفي على المكانِ هذا اللونَ المشعَ المشرقَ الذي ينعكسُ من سماءٍ صافيةٍ زرقاءَ هدوءاً موحِشاً يطلُ علينا ، ليستطردَ الشاعرُ بإقدام :-

-إنها حياتُكَ ياشهريارُ ولكَ كَل الحقِّ أن تجعلها ورديةً ، حياتُك أنتَ التي حلمتَ بها وسعيتَ لتحقيقها .. لا حياتِنا .. حياتك التي أطحت برؤوسٍ عارضتكَ .. كيفَ لا تكونُ وردية ؟ لماذا تجعلُ حياتَنا مرتبطةً بحياتِكَ... لماذا ؟!!

إلتزمَ شهريارُ الصمتَ ... منذ بداية حياتهِ الورديةِ الجديدةِ ، قررَ عدمُ إشهارِ سيفِهِ بينا هو ينظرُ بذهول في عينيْ الشاعر الذكيتين ، كانَ يجدُ إصراراً كبيراً تمازجُهُ أشعةٌ برّاقةٌ ، إذ الشمسُ بقرصهَا الذهبِي تطلُ من وراءِ الشاعرِ ينعكسُ نورُها الأشقرُ الصريحُ ساخناً ذهبياً جاعلاً ألوانَ الناسِ أشبهُ بترابٍ يابسٍ ، (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) ، قالَ شهريارُ بعدما فرغ من صمتِهِ المتأملُ بمودةٍ ماكرةٍ :-

- **ألا تعدِلُ عن رأيكَ بخصوص حيا ... تكَ وتحاولُ أنْ تحياها معنا ... ؟!!**

كان الوقتُ يمرُّ كأنهُ نهرٌ شفافٌ لا مرئي يجري به كلامُ الشاعرِ على القلوبِ الكسيرةِ مثلَ نسمةٍ عليلةٍ قائلاً بعد لحظةٍ من التفكير :-

- **كلا ...**

كانَ أبناءُ جيلِ الشاعرِ يلعبونَ لعبةَ الحربِ ... بينما الشاعرُ تنبأَ بالحربِ وبأنَّ مدتَّها ستطولُ ، لم يردّ الملكُ وآثرَ الأستهزاءَ بحديثِ الشاعرِ ... فتحَ الشاعرُ عينيهِ السوداوينَ على سعتِهما ، نظرَ للحشدِ مخاطباً

بصوتٍ عطرٍ كأنّهُ رحيقُ الوردِ الجوريّ :-

إنا إذا ما أرعدت غيماتُنا
حتماً بكاءُ غيومِنا لا يُفطمُ
سيكونُ طيراً يأكلُ الخبَـزَ الـذي
حطبُوا لهُ كلَّ السنين ليسلموُا
.. وملامحُ الفجرِ التي ولدِت علـى
أوتارُ حقلٍ أغنياتٍ ترسمُ

من أجل أنْ تجري الرياحُ بعكسِ ما

جاءَ الشراعُ لأجلهِ يتقّـدمُ

يَهتفُ أحدُ المحتشدينَ بصوتٍ عالٍ هدفَهُ أسماعَ الملكِ :-

- فلترعدْ بعيداً عنا .. نحنُ سعداءُ يامولايَ بهذهِ الحياةِ الورديةِ الجديدةِ .

كانَ نخيلُ الفردوسِ أعجازَ نخل منقعر ، وكانَ الشاعرُ عنيفاً في ردهِ ، رداً يملؤُهُ السخطَ والأزدراءَ يصدرُ عنَ نفسٍ شديدةِ الكبرياء :-

- مُنا .. فقُ .

فإذا صورةُ الشاعرِ في عَينيْ شهرزادَ الصامتتينَ المبهورتينَ قريبةً وكبيرةً كأنَهما تَحكيانِ المشكلةِ : عندما تكونَ ينبوعُ ماءٍ صافٍ

ورقراقٍ ، والظامئون يجتازونكَ ولا يستقون مِنْ مائِكَ ، لا يستقونَ لأنَّ ثغورُهم بلّلها سرابُ الوهمِ ، فزهِدوا بماءِ الينبوع . بينما صورةُ الشاعرِ في عيني شهريارُ الناطقتين المشعَتين غضباً نائيةً وضئيلةً ، يراهُ قزماً ، نهضَ شهريارُ مستاءاً وقد ثارت ثائرتُهُ مخاطباً الشاعرَ بنفاذِ صبرٍ واضحٍ :-

- صبرتُ عليكَ طو...يلاً ولكن ... (وهو ينظر للوزير)

يبادرُ الوزيرُ قمرُ قائلاً بسخريةٍ :-

- فلنمنحَ الشعبَ فرصةَ الخيارِ بين حيا..تهِ (وهو يشير للشاعر بسبابتهِ) وحياتكَ أيها الملكَ المريد .

همهم الملك :-

- أن اختاروا ... حيا...ت...يَ الجديدةَ سأضربُ عنقكَ . ماذا تقولُ ؟

أجابهُ الشاعرُ بصوتٍ حازمٍ دونَما تردّدٍ :-

- موافقٌ .

خاطبَ الملكُ رعيتَهُ بحماسةٍ ملكيةٍ كبيرةٍ ، قائلاً بتعالٍ وكبرياءِ الملوك :-

- **أبناءُ شعبِيَ البررةُ . آمركُم للأستفتاءِ ودونما ضغوط .. من كانَ مِنكُمْ يريدُ الحيا...ةَ التي يبغيها الشاعرُ ليرفعَ يَدهُ عاليا ...**

سادَ هدوءٌ مترقبٌ ساحةَ الفردوسِ ، صمتٌ ، صمتٌ مطبقٌ ، الأنفاس في الصدور ، ابتسم الملكُ بسعادةٍ باذخةٍ حين أختارت الرعيةُ عدمَ رفع أيديَهَا ، كلُّ الأيادي كتّفتْ بأجسادها مرغمةً وبقوةٍ آثرت حياة الملَكِ (...كأنهُم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ / فهل ترى لهم من باقية) إلا يدٌ واحدةٌ ارتفعت عالياً مع حياةً الشاعر ، يدٌ بيضاءُ تسرُ بعضَ الناظرين شُهرتْ بوجهِ الملكِ عكرتْ صفوَهُ ، أرتفعتْ مع حياةِ الشاعرِ البيضَاءِ ...

شهرزادُ برفعِها يدِها اليمنى عالياً أفسدتْ فرحةَ شهريارَ ، شهرزادُ تبتسمُ للملكِ ابتسامةً لا تخلو منَ الغيضِ ، كانتْ صورةُ شهريارَ

في عيَنيْ شهرزادَ الناطقتينِ الحراقتينِ نائيةً وضئيلةً .

وصورةُ الشاعرِ قريبةٌ وكبيرةٌ كأنهما تقولانِ المشكلةُ أن تكونَ قيثارةً ذهبيةً في بيتٍ ربُّهُ مبتورُ الأصابعِ ، وأهلُهُ ...

صاحَ شهريارُ سيافه وقد عادت إليه غريزتُهُ الأولى عنيفةً طاغيةً :-

- **أضربْ عُنقَ الشاعر .**

وبينا تُضربُ عُنقَ الشاعر أمام هُتافِ الرعيةِ ، كانتْ شهرزادُ تردد بصوتٍ مختنقٍ ماتحفظُ لذلك الشاعر في (هذا يوم عسر) :-

- **الصمتُ ..**

أقسى أنكسارٍ شابَ في وتري

حلماً ..

سيبذرُ في أجفانهم قدري

لينبتَ الصوت ..

في أقصى حناجرهم

بقدرِ ما تصهل الصحراء

من كبرِ ..

.. تشدُ كلَ جرارِ الريح

للمطرِ

لتحملَ

الأرضُ

شوقَ القمحِ للبشرِ .

- **الأبيات الشعرية الواردة في القصة للشاعر العراقي (جراح كريم الموسوي) .**

كاكا . . . عبد الحليم حافظ

أراقب بشغف طفولي لهو الأرانب البيض والسود ، الرمادية والبنية ، الكبيرة والصغيرة ، السمينة والضعيفة ، النشيطة والكسولة ، الذكور والإناث فوق عشب السهل الممتد بلون الحبر الأسود المخفف بالماء من على جانب الرصيف الأيمن لشارع سالم ، أحث خطاي ماشياً ، ترتفع الجادة بتقاطعاتها سابحة داخل بحيرات ضوئية تتدفق متلألئة فوق زجاج واجهات المباني الحديثة العالية ،تابعت صعودي فرحاً نقياً فوق رصيف شارع سالم في مدينة السليمانية ، مدينة السليمانية الحديثة التي تأسست يوم ١٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٧٨٤ م ، على يد الأمير الكردي (إبراهيم باشا بابان) ، والذي سمى المدينة بالسليمانية نسبة إلى أسم والده (سليمان باشا) أحد أمراء سلالة بابان ، كان الوقت ليلاً ، الجو بارد برودة منعشة لأننا كنا في كانون الأول ، مناخ المدينة حار ومعتدل صيفاً وبارد جداً شتاءً ، لحظات جميلة مرت ، لحظات ناصعة عشتها أثناء سيري أتابع الأرانب الجبلية في بحثها عن شيء تأكله ، كنت وحيداً في زحامي النفسي ، أواصل بحثي عن حياة تتسع لأحلامي مزدحماً بوحدتي ، لحظات فضية باردة من ليل كانون الأول ، نجوم ليل كانون أنكدرت ، انتشرت الظلمة في السماء ، والوحشة تغطي الجبال السود المحيطة بالمدينة ، لولا مرور الغيوم المبحرة في الفضاء الأزرق الداكن لتضيف ترقباً عجيباً ، أسمع موسيقى حزينة أشد حزناً من حزني ، الليل خال من النجوم ، هذه الليلة كانت السماء ترقد بسحر غامض في بحرها الأزرق الداكن السيال ، موسيقى أيقظت قلبي من فرحه ، أضواء إنارة أعمدة شارع سالم العريض ذهاباً وإياباً صعوداً ونزولاً تضيف هي الأخرى عمقاً مضيئاً ، أضواء مصابيح السيارات السريعة تضيء بشدة أثناء مرورها مسرعة في غدوها ورواحها بقوة تضيء الطريق والسفح والبنايات والأشجار والمارة والعلامات المرورية ولوحات الإعلانات المعدنية ولوحات إعلانات

كبيرة تضم صور المطرب التركي إبراهيم طاطلس مستثمراً ، تضيؤها ، وبشدة تخفت ، وتغيب هذه الأضواء مثلما تتوارى الأرانب في جحورها ، كانت عيون الأرانب تضيء لامعة نتيجة انعكاس أضواء مصابيح السيارات على عيونها وهي تلهو في أعلى الوادي أمامي ، تكشف نيونات الشارع كنوز أجساد الأرانب البيض الناعمة كالحليب ، والأرانب السود الطرية كالليل ، والرمادية وافرة كحزن حياتي ، والأرانب البنية المكتنزة كهباءات أيامنا ، ثمة نجم يضيء في المدى القريب ، أظنه قمراً صناعياً ، كان ضوؤه مكملاً لهرمونيا اللون أمامي ، داخل عيني ، رمادياً ، وأزرق داكناً ، وأزرق بتدريجات مختلفة تراقص تارة بين غامق وفاتح حسب مرور حركة أضواء مصابيح السيارات الآتية التي تسلط ضوءها على وجهي ، تشيع البهجة في النفوس مع تساقط قطرات المطر التي تتراشق متلامعة أمام عيني الجنوبيتين بفعل انعكاس ضوء مصابيح السيارات أثناء نزولها السريع ، تتراص الأبنية الحكومية من على جانبيه ، وتملؤني الموسيقى الحديثة الصافية كتميمة آسرة تشبه السحر ، من بعيد التقطت أذناي الموسيقى الساحرة العذبة والخفيفة لأغنية العندليب الأسمر :((زي الهوى)) ، أنها السحر الذي استولى على روحي وقلبي وعقلي ، سحرتني الموسيقى ، وسحرني حزن الأسمر عبد الحليم حافظ رغم حبوري الكبير حتى امتلأت بالحزن إلى أقصاي ، وفضت بالحزن حزناً . كان صوت عبد الحليم حافظ يملأ شارع سالم كله ، ويضيء أرواح المارة المتبضعين بحزن ابيض منسي ، كأن صوته يتدفق من ينابيع أرواحهم المعذبة عشقاً ، رحت أردد ما كتبه صديقي النبيل الشاعر العراقي المبدع (أديب كمال الدين) بحق العبقري عبد الحليم حافظ :- عبد الحليم

.١

حين انكسرَ فنجانُ القهوةِ المرّة
ما بين أصابع العندليب المرتبكة،
سالتْ روحُه العاشقَة
وسطَ حنين الناي وأنين الكمان.

.٢
كانَ مطربُ قارئة الفنجان
عبقريّاً بما يكفي
ليركبَ درّاجةَ النجومِ الهوائيّة
ويغنّي عن القمر،
قريباً جدّاً من القمر،
ويفتنَ ألفَ سندريلا وسندريلا
بألفِ أغنيةٍ وأغنية.
كانَ عبقرياً، إذن، ليكونَ نجم النجوم.
.٣
لكنَّ قارئ الفنجان الذكيّ
ومطرب قارئة الفنجان العبقريّ
الذي روّضَ الفقرَ والجوعَ والحرمان
وروّضَ الحظَّ الممُزّق
مثل ثياب المُهرّج
وروّضَ ألفَ سندريلا وسندريلا،
روّضته جرثومةُ البلهارسيا التي لا ترى
ولا تُرى!
كانتْ أذكى من عبقريّته اللامعة
وأعظم حظّاً من نجوميّته الساطعة.
فانكسرَ فنجانُ القهوةِ المرّة
ما بين أصابعه العاشقة
حتّى سالتْ روحُه العذبة،
وهي في قمّةِ الحبِّ والشوق،
وسط دموع الناي وأنين الكمان.
صرت أقترب ، وشدو العندليب يهزني بألم . كنت ألتاع ، ولوعة صوت العندليب صارت تبكيني ، تمطرني بكاءً كلما جهدت في صعودي شارع سالم صوب مركز مدينة السليمانية ، كانت مدينة السليمانية عاصمة

لإمارة بابان الكردية ، وظلت مدينة السليمانية عاصمة الإمارة البابانية حتى عام ١٨٥١ م ، منها أعلن محمود البرزنجي التمرد ضد الاحتلال البريطاني في ٢٢ مايو ١٩١٩ م ، قام بإلقاء القبض على المسؤولين البريطانيين فيها ، وأعلن دولة مستقلة للأكراد ، والسليمانية عاصمتها ، أعلن الاحتلال البريطاني اعترافه بهذه الدولة وإعلان محمود البرزنجي ملكاً عليها لإسكات سكانها .

خلفت الأرانب ورائي ، تثيث مطر شهر كانون الأول منعش وجميل يضرب وجهي ، يغسل جبهتي ، يطهر روحي ، ناعم وسريع يزداد كلما حثثت خطاي صعوداً ، راحت الذكريات تنهال مثل نهر عذب ، ذكريات الحب الأول ، دنوت أكثر وأكثر من صوت حليم ، كانت دموعي تنهمر بغزارة ، كان الجو بارد برودة منعشة حلوة ، برودته الحلوة وقطرات المطر ودموعي المنسابة بغزارة جعلتني ما عدت قادراً على الرؤية أمامي ، ما عدت أرى لأن غناء حافظ سلب لبي وصعد إلى قلبي ، أحتل نسغ روحي حتى صرت أمام مصدر الصوت ، رجل في عقده الخامس ، ممدداً جسده الهزيل على أسفلت الرصيف الأسود الناعم ، يتكيء على جانبه الأيسر، يرتدي بذلة سوداء تشبه بذلة عبد الحليم حافظ عندما غنى : (رسالة من تحت الماء) ، معطلاً ، معطوباً ، يفترش الرصيف الإسفلتي العريض من شارع سالم الأيسر باتجاه قلب المدينة صعوداً ، قلب مدينة السليمانية النابض بالناس ، يعطي ظهره لطريق السيارات ، مولياً قدميه الطويلتين باتجاه مركز المدينة ، والسابلة يمرون أمامه أزواجاً وفرادى وجماعات ، سابلة سماناً وضعافاً ، طوالاً وقصاراً ، ذكوراً وإناثاً ، ذكوراً صلْعاً وبشعر ، حليقي اللحى وبلحى طليقة ، لحى مشذبة ولحى شعثاء ، حليقي الشوارب وبشوارب ، شوارب كثة وبشوارب قصيرة ، بالزي الكردي وبالزي الرسمي ، نساء شابات وكواهل ، نساء بالزي الكردي التقليدي وبالزي الغربي ، تقع خلفه بناية المكتبة المركزية في مدينة السليمانية ، وقفت أمامه ، أمامي بناية المكتبة العامة في مدينة السليمانية ، الليل جميل والهواء عليل ، ونث المطر أخذ يتراجع ،

وقفت أنظر له بعينين مخضوضبتين بالدموع ، يؤدي حركات حليم بشكل ساحر مع إيقاع موسيقى زي الهوى الصادحة في الفضاء الأسود ذي النجوم الفضية البيضاء ، انتظرت ، انتظرته حتى يفرغ من وصلته في الغناء وقيادة الفرقة الموسيقية التي لا وجود لها ، يلوح في الهواء بذات الحركات التي أداها سابقاً الراحل عبد الحليم حافظ ، انتظرته باكياً ، صرت أجهش بالبكاء بصوت عالٍ ، أبكي بشدة وبحرقة لأن الرجل المعاق يقلد حركات العندليب الأسمر وهو يغني (زي الهوى) ، يقلده في كل مقطع ، يقلد حركاته في كل (كوبليه) مثلما يفعل عبد الحليم حافظ ، يقلد حركاته نفسها ، حركات يده اليمنى رغم عوقه . كل إيماءة كانت احتراقاً ، انتهت « زي الهوى « ، دموعي ملء قلبي ، تصعد حتى عيني ، فتمطران حزناً على وجنتي اللتين تستقبلان مطر كانون بلسعاته الحلوة ، قرفصت قبالته ، بيننا قطعة المقوى التي تزينها صورة عبد الحليم حافظ وهو يغني (الهوى هواي) ، كان يضع فوق الصورة جميع أشرطة الراحل عبد الحليم حافظ ، كانت عن يمينه مسجلة سوداء نوع (سوني سوبر ستريو) بسماعتين كبيرتين عاليتي الصوت وفائقتي الجودة، وبجانبها بطارية سيارة كبيرة تديم عمل المسجلة الضخمة ، وأمامه كل أشرطة « كاسيتات « العندليب الأسمر ، هم يستبدل شريط أغنية (زي الهوى) بواحدة أخرى ، قرفصت قبالته ، سألته بمودة وبصوت متحشرج تخنقه العبرات مع ابتسامة خفيفة سافرة :-

- كنت أتصور أنني الوحيد في العراق كله يحب سماع العندليب الأسمر ؟!!!

أنتبه لقرفصتي أمامه ، رمقني بطرف عينيه ، قسمات وجهه مندهشة ، يشع من عينيه تحد غريب ، بدا وجهه النحيف مشعاً بالتحدي ، رأسه الطويلة تغطيها تسريحة الساحر الأسمر عبد الحليم حافظ ، خدان شاحبان تتموج فوقهما أنوار السيارات ، ترك شريط « كاسيت « المسجلة فوق الورق المقوى عن يمينه ، أبتسم بوجهي الجنوبي الأسمر ابتسامة المتبجح ، أشعل سيجارة لنفسه ، أحسست برغبة لتدخين سيجارة

لكنني أحجمت عن ذلك ، سحب نفساً عميقاً من سيجارته التي أتقدت ، أشتد توهج جمرها ، وصار جمراً ، تركها أمامه على أسفلت الرصيف ، وضع شريط الكاسيت في المسجلة ، صدحت الأنغام ، أنها قارئة الفنجان ، خفض الصوت قليلاً ، أمسكني من ياقتي ، ياقة قميصي الأبيض بيده اليمنى السليمة المتسخة مستفزاً ، يبدو أن سؤالي أستفزه ، سألني بغرور محبب قائلاً بحدة ومزاج عكر :-

- أتعرف متى ولد ؟

ألتزمت الصمت ، لم أجبه ، أجاب بصوت مبحوح :-

- ولد في ٢١ يونيو ١٩٢٩ م ، في قرية الحلوات التابعة لمركز الإبراهيمية محافظة الشرقية .

ساد بيننا صمت طويل ، حافظت على صمتي ، نظر إليّ نظرة عميقة وسألني كاسراً للصمت الذي نشب بيننا :-

- أتعرف أسماء أخوته ؟ وكيف نشأ ؟!!

حركت رأسي ذات اليمين وذات الشمال دلالات على النفي وعدم معرفتي ، اصطنعت الجهل ، وعدم المعرفة ، اتخذت الصمت سبيلاً لإخراج ما بداخله ، لأنني أعشق العندليب الأسمر حد الوله ، وأعتبره إنساناً استثنائياً بحسه الإنساني العالي وصوته الجميل ، زفر بوجهي بحنق ، وكأنه زفر كل ذكرياته التي غارت في التجاعيد التي تملأ وجهه الطويل النحيف الأصفر ، تابع إجاباته على الأسئلة التي يسألني بها :-

- حليم الابن الأصغر بين أربعة إخوة هم إسماعيل ومحمد وعليه . توفيت والدته بعد ولادته بأيام وقبل أن يتم عبد الحليم عامه الأول توفي والده ليعيش اليتم ، عاش بعدها في بيت خاله الحاج متولي عماشة . كان يلعب مع أولاد عمه في ترعة القرية ، ومنها أنتقل إليه مرض البلهارسيا الذي دمر حياته .

أطرقت حزناً ، كانت العتمة تسود كل شيء ، والضجيج سيد المكان ،

سألني بنبرة ليّنة :-

- **أتعرف أسمه الحقيقي :-**

سكت ، نظر إليّ نظرة عميقة وأجابني كمقاتل يخوض حربه الأولى :-

- **عبد الحليم شبانه .**

كان يوم الثلاثاء ١٥ / ١٢ / ٢٠١٥ م ، لذت بصمتي ، والعتمة تغطي المدينة ، الليل هادئ ، وساكن ، قال متسائلاً :-

- **أتعرف من أكتشف العندليب الأسمر ؟**

التقت عينانا ، أردت أن أنطق إلا أنه لم يمهلني ، كأنه عرف بماذا أفكر ، أجاب ناقماً علي لجهلي :-

- **أكتشفه الإذاعي الكبير حافظ عبد الوهاب ، الذي سمح له باستخدام أسمه « حافظ « بدلاً من شبانه .**

مسحت دموعي بظاهر كفي اليمنى ، نظرت إليه ، كان باستطاعتي أن أرى عينيه تومضان بمكر ، كأنهما عينا فأر ماكر تتحركان وتطرفان بشدة في محجريهما على أنغام موسيقى :» قارئة الفنجان « ، تساءل ببسالة :-

- **أتعرف كم عملية جراحية أجريت له ؟**

حقيقة لا أعرف ، أجاب بنبرة تأملية نادرة باردة :-

- **أجرى خلال حياته إحدى وستين عملية جراحية .**

تعجبت ، شاهد استغرابي ودهشتي ، رأيت في عينيه نظرة عنيدة باردة ، توقف زخ المطر ، بدت الأشجار الطويلة الداكنة تلمع تحت أضواء مصابيح الشارع ، أعمدة الكهرباء طويلة ناحلة تُشرِعُّ ضوءها الأصفر فوق جلستنا ، يغمرنا نور مصباح الشارع حتى غرقنا في ضوئه ،أكمل أسئلته وأجوبته :-

- **أتعرف كم أغنية غنى ؟**

زحفت الظلمة بسرعة ، حاصرتنا ، ظلمتها تنزلق بنشاط فوق المدينة ، تحيل وجهينا إلى ، أخشى أن أكون فقدت زهوي ، كنت أعرف ولا أرد عليه لأنه وسخ ياقة قميصي الأبيض ، أجاب بتبجح :-

- قدم عبد الحليم أكثر من مائتين وإحدى وثلاثين أغنية .

قرأت بوضوح ما دار في ذهنه ، تساءل بلهجة هادئة انبثقت من روحه :-

- أتعرف في أي سنة أجيز عبد الحليم حافظ في الإذاعة ؟ وعلى أية أغنية ؟

رحت أنظر بعينيه المزهوتين ، وصار ينظر إليّ مندهشاً ، راح يكمل أجابته على سؤاله :-

- أجيز عبد الحليم في الإذاعة عام ١٩٥٢ م ، بعد أن قدم قصيدة « لقاء « كلمات (صلاح عبد الصبور) ، ولحن (كمال الطويل) .

عارضته بسخرية لأستفزه وأنا أنظر بفتور وغرابة :-

- أن إجازته كانت في عام ١٩٥٢ م ، بعد أن قدم أغنية « يا حلو يا أسمر « ، كلمات (سمير محجوب) ، وألحان (محمد ألموجي) ، وعموماً هناك اتفاق أنه غنى (صافيني مرة) ، كلمات (سمير محجوب) ، وألحان (محمد ألموجي) في أغسطس عام ١٩٥٢ م ، ورفضتها الجماهير من أول وهلة حيث لم يكن الناس على استعداد لتلقي هذا النوع من الغناء الجديد .

السماء شاحبة والسحب بلون رماد سيجارته التي شارفت على الانطفاء أمامه ، عقب على جوابي نافذ الصبر وبنبرة تعجب عالية بعد أن سحب نفساً من سيجارته المطروحة أرضاً :-

- لكنه أعاد غناء « صافيني مرة « في يونيو عام ١٩٥٣ م ، يوم إعلان الجمهورية ، وحققت نجاحاً كبيراً ، ثم قدم أغنية « على قد الشوق « كلمات (محمد علي أحمد) ، وألحان (كمال الطويل) في يوليو عام ١٩٥٤ م ، وحققت نجاحاً ساحقاً ، ثم

أعاد تقديمها في فلم « لحن الوفاء « عام ١٩٥٥ م ، ومع تعاظم نجاحه لُقب بالعندليب الأسمر .

كنت محاصراً ومعزولاً في عالم بارد ومليء بالمطر والغناء والأسئلة والغربة ، ثمة أغنية ناعمة تنبعث من مسجلة الرجل تلامس بحنو روحي وتداعب سكون الليل وأنوار شارع سالم وتطير هذه الأنغام العذبة للمقدمة الموسيقية لأغنية : (قارئة الفجنان) التي أبدع في تلحينها الملحن العبقري محمد الموجي تطوف بين أغصان الأشجار في الحدائق المحيطة بنا ، في هذه اللحظة كان الليل في بدايته ، والموسيقى ناعمة تنبعث من المسجل ، ودفعات الريح تلاطف الوجوه بحنو، أخذ يبتسم متسائلاً :-

- أتعرف من من الملحنين تعاون معه ؟

الغيوم البيض والرمادية والزرقاء الداكنة بدأت تتلاشى تتلبد بسرعة في السماء المكفهرة فوقنا ، أظلم الشارع شيئاً فشيئاً ، الريح نعصف بالأشجار فتحني أغصانها وتتناثر أوراقها ، كنت ساكناً وحزيناً ، سكت عن قصد ، لكنه ظل ينتظر حتى بدأ الجو يتغير بسرعة مذهلة ، أجاب بنظرة خبيثة من عينيه :-

- تعاون مع الملحن العبقري (محمد الموجي) ، حيث غنى له الكثير أبرزهن : (قارئة الفنجان ، ورسالة من تحت الماء) لنزار قباني ، والملحن الفذ (كمال الطويل) ، والملحن العبقري (بليغ حمدي) ، حيث شكل (حليم – بليغ) مع الشاعر المصري المعروف (محمد حمزة) أفضل الأغاني العربية من أبرزها : (زي الهوى ، سواح ، حاول تفتكرني ، أي دمعة حزن لا ، موعود) ، كما أن له أغاني شهيرة من ألحان موسيقار الأجيال (محمد عبد الوهاب) مثل : (أهواك ، نبتدي منين الحكاية ، فاتت جنبنا) .

تبسمت بحزن ، وتشجيع ليكمل أسئلته:-

- أتعرف من جمع تراثه الغنائي ؟

كعادتي أومأت بعدم المعرفة ، فأستطرد يجيب بدلاً عني :-

- قام صديق عبد الحليم حافظ (مجدي العمروسي) بجمع أغانيه في كتاب أطلق عليه : « كراسة الحب والوطنية . . . السجل الكامل لكل ما غناه العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ » .

- أتعرف من كان صديقاً له ؟

رفعت حاجبي ومنكبي في آن واحد إلى أعلى متعجباً أن لا أعرف ، بادر قائلاً :-

- كان صديقاً له الحبيب بورقيبة ، والحسن الثاني ، والملك حسين .

واصل مطر أسئلته علي حتى أنني ضجرت وندمت لأنني سألته ، أتلف لي هندامي ، ووسّخ لي ياقة قميصي الأبيض ، وتبللت بماء المطر ، رأيت ضوءاً فريداً ينطق لامعاً لاصفاً مشعاً في عينيه يشبه سرب طيور عند الغروب ، أكمل :-

- أتعرف كم أغنية مصورة له ؟

كان المطر يغسل وجهينا ، سكتّ ، دموعي تغسل نفسي مثلما يغسل المطر وجهي ، أجاب بنبرة لا تخلو من حنان :-

- عدد الأغاني المصورة في التلفزيون يصل إلى مائة وأثني عشرة أغنية .

تابع يسألني وهو ممسك بخناقي ، وكأني كفرت وسألته :-

- أتعرف كم فلماً سينمائياً مثل فيه ؟

أجبته لأناكفه :-
- ستة عشر فلماً سينمائياً .

مازال الخيط والعصفور بيدي ، وقبل أن يسألني رحت أعددهن له لأضيره بصوت جاهدت أن يكون رقيقاً :-
- لحن الوفاء عام ١٩٥٥ م ، وشاركه البطولة شادية وحسين رياض ، أيامنا الحلوة عام ١٩٥٥ م ، فاتن حمامة وعمر الشريف وأحمد رمزي ، ليالي الحب ١٩٥٥ م ، وشاركه البطولة آمال فريد ، وعبد السلام النابلسي ، أيام وليالي عام ١٩٥٥ ، وشاركه البطولة إيمان ، أحمد رمزي ، محمود المليجي ، موعد غرام عام ١٩٥٦ م ، فاتن حمامة ، عماد حمدي ، زهرة العلا ، رشدي أباظة ، دليلة عام ١٩٥٦ م ، شادية ، فردوس محمد . كان أول فيلم مصري ملون بطريقة (السكوب) ، بنات اليوم عام ١٩٥٧ م ، ماجدة ، آمال فريد ، أحمد رمزي ، الوسادة الخالية ، أحمد رمزي ، زهرة العلا ، لبنى عبد العزيز ، عمر الحريري ، منقولة عن رواية الأديب المصري إحسان عبد القدوس ، فتى أحلامي ١٩٥٧ م ، منى بدر ، عبد السلام النابلسي ، شارع الحب ١٩٥٨ م ، صباح ، عبد السلام النابلسي ، حسين رياض ، حكاية حب ١٩٥٩ م ، مريم فخر الدين ، عبد السلام النابلسي ، محمود المليجي ، البنات والصيف ، زيزي البدراوي ، سعاد حسني ، يوم من عمري ١٩٦١ م ، زبيدة ثروت ، عبد السلام النابلسي ، محمود المليجي ، سهير البابلي ، الخطايا ١٩٦٢ م ، عماد حمدي ، حسن يوسف ، نادية لطفي ، مديحه يسري ، معبودة الجماهير ١٩٦٧ م ، شادية ، فؤاد المهندس ، يوسف شعبان ، أبي فوق الشجرة ١٩٦٩ م ، وشاركه البطولة عماد حمدي ، ميرفت أمين ، نادية لطفي وكان آخر أفلامه .

فتح عينيه الجمرتين يتطلع بوجهي ، كان وجهه خالياً من أي تعبير سوى أتقاد عينيه الحانقتين ، وجهه أبيض مصفر حقود ، انفرجت شفتاه المزرقتان ، ولكي أوغل في أغاظته أضفت :-

- كما قام ببطولة المسلسل الإذاعي : « أرجوك لا تفهمني بسرعة « سنة ١٩٥٥ م ، وأدهم الشرقاوي ١٩٤٦ م ، كما ظهر في فيلمين هما إسماعيل ياسين في البوليس الحربي ، وقاضي الغرام .

راح ينظر إلي بحقد وغضب حتى أن عينيه أتقدتا ، توهجتا ، اشتعلتا ، سأل قاصداً إحراجي وقبضته أطبقت على خناقي ، وكان سؤاله مثل ضوء بزغ في العتمة :-

- أتعرف متى زار بغداد ؟ وماذا غنى فيها ؟ وأين غنى ؟ وأين أقام ببغداد ؟

استمرأت لعبة أغاظته ، أجبته مؤكداً :-

- نعم . أواسط الستينيات ، وأحيا عدة حفلات غنائية على خشبة مسرح (سينما النصر) في شارع السعدون ، تصاحبه الفرقة الماسية بقيادة الموسيقار (أحمد فؤاد حسن) .

أغتاظ ، احمرت أوداجه وانتفخت من فرط الغيظ ، نظر إلي بعينين مفتوحتين بأتساع نظرة متوحشة تعارضت مع ابتسامة رضى ، تساءل بوحشية :-

- أتعرف أسماء الأطباء الذين عالجوه في رحلة مرضه ؟

غرقت حزيناً داخل لجة نفسي ، كان ثمة خيط دقيق يشدني إلى الغرق في مناكفته ، أجبته رغم غرقي في بحر حزني الواسع وابتسامتي لا تفارق عينيي و شفتي :-

- الدكتور مصطفى قناوي ، الدكتور ياسين عبد الغفار ، الدكتور زكي سويدان ، الدكتور هشام عيسى ، الدكتور شاكر سرور ، ومن إنجلترا الدكتور تانر ، الدكتورة شيلا شارلوك ، الدكتور

دوجر ويليامز ، الدكتور رونالد ما كبث ، ومن فرنسا الدكتور سارازان .

أطرق برأسه قليلاً نحو الأرض بعد أن عصفت به أجوبتي ، رفع رأسه محدقاً بعيني بعينين أتقدتا حقداً وغضباً ، أبتسم بمكر ، وصار الخبث يتطاير من عينيه المتقدتين الخبيثتين ، وسألني بمكر :-

- أتعرف ما أسم سكرتيرته الخاصة ؟

أجبته والابتسامة لا تفارق عيني و شفتي:-

- سهير محمد علي .

نظر إلي مندهشاً ، أراد مقاطعتي ، أومأت له بيد أن أسكت ، وأكملت :-

- عملت سكرتيرة خاصة معه منذ عام ١٩٧٢ م ، وكانت ترافقه في المستشفيات التي رقد فيها حتى وفاته في يوم الأربعاء ٣٠ مارس / آذار من عام ١٩٧٧ م ، في لندن عن عمر يناهز السابعة والأربعين عاماً .

أسمع موسيقى قارئة الفنجان ، تهزني ، تهز عظامي ، كان ثمة خيط دقيق يشدني إليها ، كان قلبي يخفق بقارئة الفنجان ، كأنها بقلبي ، تصاعدت دقات قلبي مع تصاعد موسيقاها ، دقات قلبي ليس لها أوّل ، ليس لها آخر ، شعرت بالحياة ، جاءت الفرصة لأقتص منه لأنه لوث ياقة قميصي ، ولخنقه لي بشدة ، سألته :-

- أتعرف أسماء المستشفيات التي رقد فيها خارج مصر ؟

أطرق متألماً ، وأجاب منكسراً :-

- لا . واللّه .

فرحت لانكساره ، ابتسمت منتصراً ، وأنا أجيبه :-

- مستشفى أبن سينا بالرباط في المغرب ، وفي إنجلترا : مستشفى سان جيمس هيرست ، ولندن كلينك ، فيرسنج هوم

، ومستشفى كنجز كولدج (المستشفى الذي شهد وفاته) ،
وسالبتريد بباريس .

كنت أجيبه بابتسامة حلوة طيبة دافئة جنوبية عذبة محرجة مني بالنفي ، النفي القاطع ، رغم أنني أعرف أجوبة كل أسئلته ، عشت معه دقائق مثل قصة قصيرة منسية ، كنت فيها أصغي إلى نبضي باتجاه فنان صنعه الألم ، هناك أنباء أحتفظ بها لنفسي ، أمس ودع الحمام الأبيض عبد الحليم حافظ يوم توفي في الأربعاء ٣٠ آذار ١٩٧٧ م ، بسبب المرض في لندن ، اليوم وضعت شركة محرك البحث عبر الإنترنت « جوجل « صورة العندليب على صفحتها الرئيسية وهي تحتفل بعيد ميلاده ، عيون المارة تعكس صورتينا ، تعكس صورتي وأنا أمد يدي اليمنى النظيفة مصافحاً أسأله بأسى وأنا أبكي روعته بصمت :-

- ما أسمك ؟

ترك ياقة قميصي الأبيض ، راح يستبدل كاسيت شريط « قارئة الفنجان « ، بواحدة أخرى ، راحت مسجلته تصدح بمقدمة أغنية :» حاول تفتكرني « ، مد يده اليمنى المتسخة لي مصافحاً ناهياً حديثنا الطويل ، بعد أن وضع سيجارته بفمه ، المطر توقف نهائياً ، حدق بعيني بعينين يسودهما الجمر ، أجابني بفخر قل نظيره :-

- كاكا . . . عبد الحليم حافظ .

بتهوفن يبيع أسطوانات الغاز

سطع نور نهار آيار ذهبياً مشرقاً من سراج شمس قوية ، ألمح تساقط الضوء الأشقر على بيوت محلتنا العتيقة ، سقوط أول أشعة شمس صبيحة الأول من آيار جعل لون الدور السكنية ذات الطابوق الجمهوري أصفرَ محاطاً بهالة من القدم ، وسط زقاقنا الضيق الزاهية حدائق منازله بأشجار السدر ومن على جانبيه تقف شامخة أشجار اليوكالبتوس ساكنة في هذا الصباح الساكن ، أجلس تحت ظلالها الباردة المنعشة ، تحف بي زقزقات العصافير تتداخل مع موسيقى عذبة تقترب نحوي من أول الزقاق ، وسط زقاقنا الضيق تسير فوق أسفلته الأسود اللامع عربة خشبية يجرها حمار أبيض اللون محملة بأسطوانات غاز قديمة متسخة بلون رصاصي قاتم ، تصدر عنها أصداء موسيقى بتهوفن تعلو كلما اقتربت من دارنا يقودها شاب يرتدي ملابس رياضية في نهاية العقد الثالث من عمره يجلس فوق أحدى الأسطوانات واضعاً حاسوبه الشخصي فوق ركبتيه ينادي بين فواصل موسيقى بتهوفن سبع مرات :

- غاز . . . غاز . . . غاز . . . غاز . . . غاز . . . غاز . . . غاز .

كانت الشمس ساخنة ، وبضع غيوم متفرقة تسود السماء الزرقاء ، سماء لم أر مثل صفائها أبداً ، بدت الشمس شقراء لا حد لجمالها تملأ سماء المدينة بشقرة مغرية ، أوراق الأشجار مبتلة بندى الصباح ، وأوراق سعف النخيل مشبعة ببخار الماء المتصاعد على أشعة شمس لا حد لجمالها ، لونها الأخضر الأثيري مذهل ، ما أثار استغرابي وتساؤلي عما يحدث بوصفه أمراً غريباً لم أعهد سماعه من قبل كوني اعتدت على نغمة محددة أصبحت بمثابة إعلان عن وصول بائع اسطوانات الغاز منذ زمن طويل ، قلت في دهشة :

- موسيقى بتهوفن ؟!!!

هدوء ناضج ترسله معزوفة بتهوفن ، ببطء ، ببرودة ، بقشعريرة ، بشكل متواتر ومتواز ، وما بينهما يصيح بصوت نشيط سبع مرات غاز ، وصل إلي ، بادرني بصوت له وقع محبب :

- أتريد قنينة غاز ؟

أجبته بالنفي بحركة من رأسي ، سألته بحزم ومهابة :

- أتحب موسيقى بتهوفن ؟

كأنه يقول لحبيبته معلناً عن حبه لها بكلمة : أحبك ، بكلمة واحدة أجاب بنبرة حالمة :

- جداً .

كان مزاجه رائقاً ، تلألأت ابتسامة عذبة على شفتيه المكتنزتين ليشرق وجهه بفرح طفولي قل نظيره ، علقت بصوت ناعم وعميق :

- يلك من إنسان رائع ؟

كان الوقت ضحى ، شمس الضحى ساطعة ، هادئة أوراق أشجار السدرة واليوكالبتوس تحمل عصافير مزقزقة لاهية بنشاط ومرح عاليين ، وسعف النخيل يستريح فوق جذوعه ، روحي متعبة لا تهدأ ، شعرت بتعبها من نزول قطرات عرق قليلة راحت تقطر من جبيني ، هواء صباحي جاف ينذر بشمس صيف حار ، أبدى خجلاً وتردداً واضحين ، عبرت عنه عيناه الخجلتان ، قال بصوت ناعم فيه من الوحشة والشجن الشيء الكثير :

- أنا إنسان حالم .

عيناه الحالمتان الزاخرتان لهباً يمطرهما دموعاً ، أسأله بصوت خافت وعيناه في ذروة لهيبهما الحالم :

- حلمك يشبهك ؟

مثل ناي حزين جاء صوته حزيناً :

- حلمي يشبهني .

الصباحات تزف نبوءة تفسير حلم الناي الحزين لمدينتي التي كانت جميلة ، زاهية خضرة أوراق أشجارها وسعف نخيلها ، وردها الجوري يضحك لنا بعطره الطيب ، نجد أنفسنا ومدينتنا مسورين بجدران أسمنتية قاسية ، ونایاتنا الحزينات يبكين حياتنا الجميلة ، يوم كنا بعد صبية صغار ، علقت بمشقة :

- لكن ما أسرع ما تنتهي الأحلام !

لون عينيه مثل لون النحاس المحترق يخفي تحته زلزال حزنه ، وزلزال حزنه يشعل الموسيقى في روحه والموسيقى تشعل النهار في ليل عينيه وعيناه بلون ليل بلاد الرافدين الحزين ، أرفع رأسي عصياً مثل رأس ثور قيثارة أور ، أخبره بعد أن توجه لي بنظرة بين اللوم والحنان وهو يسحب نفساً عميقاً ، ويتحسر بشدة ، وبدا لي صوته حزيناً :

- الناجح هو الحالم الذي لا يستسلم في حياته أبداً .

مرت لحظات سكون منحتنا الاستماع لهمس نظراتنا الطويلة المندهشة كأننا نعيش حالة غرق ، كانت عيناي عيني غريق ، وكانت عيناه حازمتين قال بحزم مثل قائد عسكري :

- أنا تعس بدون الموسيقى .

تلك اللحظة رأيته قوياً وحائراً وحزيناً معاً مثل كمان . لم يك يرغب بالتحدث ، ولم يك قادراً على الصمت ، من جديد غرقنا في لجة الصمت ، في تلك اللحظة قال وقد خرج صوته مغيظاً حانقاً :

- تعاستي تكمن في أنني لا استطيع أن أعيش بدونها .

سألته في محاولة مني لأعتذر منه ولتوضيح الأمر ، وأنا أبتسم له ابتسامة عريضة :

- الموسيقى أخرجتك من قنوطك بعد أن طرقت جميع أبواب الحياة حتى وصلت بابك .

استطردت :
- أفتح الباب .

قال :
- فتحته ببيع الغاز .

سألته :
- ولم تبيع الغاز على موسيقى بتهوفن ؟

أتخذ وجهه سيماء جادة أقرب إلى الصرامة حين وجهت سؤالي إليه ليفسر لي لم يبيع قناني الغاز على أنغام موسيقى " لودفيغ فان بيتهوفن " ، رد عليّ بكلمات تامات صادقات بعد أن رمقني بنظرة غريبة إلتمعت في عينية اللوزيتين المغمستين بضوء شمس قاسية ، قال بصوت مبحوح يشبه الهمس :
- حبي للموسيقى يجري في عروقي .

خضرة حديقتنا في هذا الصباح فياضة ، ناصعة ، ومتنوعة ، ابتسمت وتطلعت إليه بمكر جميل ، وبعد قليل سألته بلهجة حزينة :
- هل درست الموسيقى ؟

أجاب بأسى فتهدج صوته :
- أنا خريج أكاديمية الفنون الجميلة – قسم الموسيقى .

استغربت من مفارقات حياتنا ، سألته بصوت هش مخنوق :
- ألم تحصل على وظيفة ضمن تخصصك ؟

أستغرب من سؤالي ، خلال ثوان سألني بكلمات لم تقلها الدنيا كلها :

- أين تعيش ؟ ألست تعيش في بلاد ما بين قهرين ؟!!!

حزنت لأن بلدي ليس فيه فرق بين حياتنا وموتنا ، وصمتٌ كسيراً لأن كل شيء فيه يعني الموت ، أصبحت روحي مثل فراشة لائبة تحوم حول ضوء شمعة ، حين رفعت رأسي ، نظرت إليه ، كانت دمعة صغيرة بلون الماء الصافي تنزلق على وجنته اليمنى ، مسحها بسرعة ، ليمتد بيننا صمتٌ قصيرٌ يافعٌ موجعٌ ، لم يطل صمتنا خلالها كنت أرقب عينيه الطيبتين القلقتين ، وحالما التقت نظراتنا ، لم أجب ، نظرت إليه ، ابتسمت ابتسامة صغيرة ، تابع يقول :

- لم أحصل على فرصة عمل ، مما دفعني إلى العمل في مهنة توارثتها أسرتي منذ سنين طويلة والمتمثلة في بيع اسطوانات الغاز .

رفعت رأسي حزيناً ، كان يتحدث إلي بهمة وصدق ، أستطرد قائلاً بحيرة وهو يشير بيده اليسرى :

- أن بيع اسطوانات الغاز مهنة غير معيبة !!!

ابتسمت له بحزن ، وحين رأى ابتسامتي التي كانت أقرب إلى العطف منها إلى المجاملة ، تابع يحدثني بصدق :

- حاولت تغيير أسلوب العمل في مهنة بيع الغاز اعتماداً على تغيير الرنة المتوارثة حيث اعتمدت على موسيقى بتهوفن وجعلتها عنواناً جديداً لبيع الغاز !!

سرحت بعيداً وهو يحدثني عن موسيقاه :

- الكثير من الناس تفاجأوا بالموسيقى ، وبعضهم الآخر حمل الأمر على محمل الجد .

صباح صيفي من صباحات آيار ، شمسه تستدير في سماء غير بعيدة يلتمع ضوؤها فضياً حاداً صريحاً ، وأنا أراقب جلالها الواضح تعجبت من قوة هذا الإنسان وقدرته على التحمل ، ابتسمت بحزن ، كنت أحس في

عينيه الدفء والحنان ، أردفته بسؤال آخر :

- هل أحببت عملك ؟

رفع إلي عينين مكتضتين باللوم لا يمكن لأي كلمة في الكون أن تقوله أو أن تعبر عنه ، كانت نظرته نظرة انتصار ، وابتسامة النصر تفترش وجهه ، أجاب بصوت جاف لا يخلو من حنان وحزن ونصر :

- أحببت عمل شيء اقتنع به .

حاولت مقاطعته ، لكنه ، أشار بيده اليمنى :

- الآن موسيقى بتهوفن باتت تجد لها صدى عند بعض الباعة رغم غرابة الأمر لدى الكثيرين .

أكمل مبتسماً :

- أحد زبائني رجل مسن لقبني ب (بتهوفن) !!

أكمل فرحاً وهو يشير إلى نفسه بيده اليمنى :

- بتهوفن يبيع اسطوانات الغاز !!

أستطرد حاكياً :

- متقاعد من سكنة الحي المجاور لحيكم اقر بأهمية اعتماد موسيقى جميلة من قبل باعة اسطوانات الغاز لتلافي الضجيج الحاصل أثناء وصول بائعي الغاز إلى الأحياء السكنية لبيع بضاعتهم للزبائن .

طازجة ، يانعة ، حانية ، ورقيقة ثمار أشجار سدرة الجيران ، لها رائحة ومنظر شهي تروج له الشمس في عيني عنوة ، فاجأني حديثه الممزوج بالمتعة ، وقال ما لا يمكن أن يقوله أي شيء على هذه الأرض :

- التغيير صعب في أي مهنة بسبب أن المواطنين اعتادوا على أطار معين سنين طويلة لذا فان الجهد والمثابرة ستغير الآراء وربما يأتي يوم يؤمنون فيه بأن موسيقى بتهوفن أو غيره باتت

مقطوعات إعلانية لقدوم باعة اسطوانات الغاز .

نظرت إليه نظرة خاطفة متسائلة ، أشرق معها وجهه ، جاءني صوته فرحاً :

- اغلب باعة اسطوانات الغاز يثيرون الضجيج في تنبيه السكان بوصولهم بالطرق على اسطوانات الغاز بآلة حديدية .

أكمل حديثه ثابتاً مستقراً ، عيناه شديدتا اللمعان ، وضوؤه يملأ روحي مسرة :

- سمعت عن وجود باعة اسطوانات عمدوا إلى استخدام موسيقى بتهوفن كبديل عن الضجيج لبيع اسطوانات الغاز .

عيناه تتكلمان ، حديثهما جذاب مشوق ، أقرأ فيهما حبه للموسيقى وحزنه وقلقه الكبيرين عليها ، وجدت فرحه بحبه للموسيقى متجسداً في حركات أصابع يديه الطويلتين الرفيعتين السمراوين ، سألته مبتسماً ، وأنا أحرص على رسم ابتسامة أجمل من ابتسامته :

- هل اعتبرتها خطوة تغير جميل ؟

أجاب بفخر :

- وضع موسيقى جميلة لبتهوفن ستدفع زبائني . . .

شمس آيار ارتدت شالها الأصفر ، أنغام حفيف حرير ضوئها تسيل منسابة من أوتار خصلات شعرها الأشقر ، أنستني ابتسامتي على شفتي ، قاطعته مشاكساً :

- للظن بأنك مجنون .

ألتمع ضوء خيبة فضي حاد صريح في عينيه يكشف عن وجوده القاسي بقسوة ، فاجأته وأنا أحرك ساكناً بقولي له :

- أو أنك فقدت عقلك .

كان متعباً وغريباً ووحيداً كأنه قد سقطت على قدمه قنينة غاز ، شفتاه تواقتان لأن تردا علي إلا أنني لم أمنحه حق الرد ، وأنا أقابله بابتسامة مبتسرة مغمغماً :

- ستعرضك موسيقاك لسخرية الأطفال في الأحياء الشعبية بسبب جهلهم بالموسيقى العالمية .

أشقر جليل ضوء الشمس ، وأخضر هادئ لون ورق الأشجار ، وأرجواني نابض بالعنفوان والتحدي لون وجهه ، ورائحة ثمار النبق تشرق في الفم حلاوة لاذعة ، نظرت إليه نظرة تومض بالمحبة حيث استطردت قائلاً :

- بتهوفن لا يمكنك بيع اسطوانة غاز واحدة لان الأهالي اعتادوا على ضجيج الباعة وصوت طرق الحديد بالحديد .

سحب لجام حماره وحثه على التحرك ، ثمة غيمات باهتات يتراكضن في سماء بيضاء صافية ، سألته بحياد بارد :

- لم تنادي سبع مرات ؟

أبتسم وكأنه أعتاد الحزن والجوع والفقر والحرمان ، وأجاب مسروراً مؤمناً بقوة بقدره :

- تعطيني إيحاءً بالخير الكثير ، وتوقع أقصى درجات الرهبة في نفوس السامعين .

تركني بعد أن أطلق عنان حماره ، رفع صوت موسيقى بتهوفن ، دموعي تنهمر فضية ممزوجة بالحسرة والخوف ، بكيت ، تركني وحيداً ، صرت لا أعرف كيف أميز بين دموعي وموسيقى بتهوفن وهو ينادي بشجاعة وقوة :

- غاز . . . غاز . . . غاز . . . غاز . . . غاز . . . غاز . . . غاز .

سيجارة الضابط العراقي

وقفتُ مهموماً وسطَ شارع الهوى سابقاً ألحبوبي حالياً في مدينتي الناصرية بعد خروجي مِنَ المدرسةِ وبرفقتي زميلٌ لي وصلنا ساحة ألحبوبي التي يتوسطُها تمثالُ الشاعرِ المجاهدِ (محمد سعيد ألحبوبي) ، مر رتل عسكري مؤلف من سياراتَ : (اللاندكروزات اليابانية تحمل قادة الجيش الكبار ، والوازات الروسية ضمت ضباطاً برتب صغيرة ، والفاوانات الألمانية تحمل الدباباتِ وفوقها جنودها ، والكمنز الروسية تنقل العتاد والمؤن وجنود النقل والتموين ، و الأيفات محملات بالجنود الذين يلوّحونَ مع جنود الدبابات وجنود النقل والتموين والضباط الصغار لطلابِ المدارسِ والمارةِ المتعبين بعلامةِ النصرِ .

شاهدَ زميلي مثلما شاهدتُ أمَامَ الشابة الجميلةَ زوجةَ الشهيدِ وقفتْ أمامَها سيارةٌ يابانية الصنع نوع : " تويوتا سوبر" ، حمراءُ اللون يقودُها ضابطٌ يضعُ على متنهِ ثلاث نجومٍ ذهبيةٍ وجناحي صقر ذهبي ، راودَها ، فصعدتْ إلى سيارتهِ ، ونحن نتطلع مبهوتين بعيون سومرية سودٍ تلتهبُ دماً ، أثناءِ مرور السيارةِ من أمامنا رمى الضابطُ عُقبَ سيجارتهِ بوجوهِنا ، وراحَ عُقبُ سيجارتهِ يعربدُ في الهواءِ حتى تلقفتهُ الأرضُ ؛ أرضُ العراقِ ، وحماةُ البوابةِ الشرقيةِ يلوحونَ بعلامةِ النصرِ لنا.

حوار في مرآة الذات

...عازفٌ ماهرٌ للقصةِ القصيرةِ...ولكلِ قصةٍ حكمتها «تغريدتها « في وادي الرافدين...إنهُ سومريُ مبدعٌ كونهُ يعرفُ متى يتلمس الوتر الصحيح لكل وتر من أوتار القيثار السومري...تتراوح قصصه دائماً بين الأسودِ والأبيضِ ...لا...رماديّ...رغم ما في حياتنا من أوتارٍ رماديةٍ كثيرةٍ ... فكان لنا معه هذا الحوار:-

•أجدك تعزفُ على لونينِ أسودَ وأبيضَ في قصصكَ . لِمَ لا تعزفَ على الأوتارِ الرماديةِ ؟

- الإذلالُ اليومي , واليأسُ , والبؤسُ , والشقاءُ , والفقدُ , والترملُ , واليتمُ , والجوعُ ,والقهرُ , والامتهانُ ,والاستبدادُ , وهجرُ الحبيبةِ , وهجرُ الحبيب , والسرقةِ , والأميّةِ , والاستجداء , والخيانةُ , والرشوةُ , والوشايةُ , والغدرُ, والاغتصابُ, والقتلُ , والتهجيرُ , والذبح بحسبِ الهوية , وفظائع التفخيخ ,وتضاؤل فرص النجاة , وجنون العبواة اللاصقة , وانقطاع التيار الكهربائي , ودموعُ طفلٍ يتيمٍ , ودمعةُ طفل يبحثُ عمّا يَسدُ بهِ جوعَهُ في المزبلةِ ... كلها أحزانٌ سودٌ . . . لونها أسودٌ ... إنها ضمنُ الوتر الأسود للقيثار, وابتسامة طفلة كلها أفراح بيض ... لونُها أبيضُ ... إ نها ضمنَ الأوتار البيضِ للقيثارِ. أعطني وتراً رمادياً لأعزُفَ عليه ؟!

•موضوعاتُك مستّلةٌ من جوهرِ حياتنا اليوميةِ...أتوافقني الرأي إنها

ثيمات ُ انتقائية ٌ ؟

- **إنها قصص ٌ منتخبة ٌ من راهن ِ واقع ِ حياة ِ العراقيين العليل ِ والمأساوي ّ في سني مخاضاتهم العسيرة التي س َــو َد َها مشهد سياسي مضطرب ُ قاتم... كنت ُ اغـزلها بمغزل ِ الأحداث ِ القاسية ِ التي مـر ّ بها أبطالي الذين طحنتهم رحى الخوف وألقت ْ بهم الحروب ُ والحصارات ُ والاحتلال ُ على قارعة ِ الط ُر ُق, وتركتهم نهباً للضياع ِ... إنه ّم يعيشون َ حياتهم علىحافتها.**

•مايهم ٌ علي السباعي وهو يكتب ؟

- **أن أكون َ صادقا ً**

•ا ِم َ تكتب؟

- **أكتب ُ بوازع ٍ من ضميري لأنني عشت ُ فداحة َ غربة َ واقعي في عراق ٍ قاس ٍ جدا ً , كان التفس ّخ شاملاً في حياتنا المدمرة , فقد أثرت بي الظروف وبشكل كبير فكتبت لروحي ,لأن الكتابة انتشلتني من يأسي وحزني وكآبتي , وفرح ُ الانتهاء من الكتابة ِ يكون سرورا ً أن تنتصر َ لإنسان ٍ ه ُد ِرت ْ كرامته...لا تنصفها الكلمات ُ . لكنها ت َص ِف ُه َا.**

•ماذا كتبت ْ ؟

- **ما أشعر ُ به من : مشق ّة ٍ وألم ٍ وإحباط ٍ وخوف ٍ ويأس ٍ وأحلام ٍ ضائعة.**

•ع َـم ّ كتبت ْ مدافعا ً ؟

- أطلقـتُ صرختي بصوتٍ عالٍ صادحٍ مدافعاً بلا مساومةٍ عن قناعاتي ضد كل من استهترَ بقيمنا . . . قيمَ الإنسان العراقي وحقه في حياةٍ آمنةٍ , وبدفء إنساني ومزاج متـّقدٌ انتصرت فيه بالحبِ كتابةً للمظلومين.

•ما دور فعل الكتابة في حياتك ؟

- جعلني أكثرُ إنسانية .

•ما الذي تجيدُ فعله في هذهِ الدنيا ؟

- أُجيدُ شيئاً واحداً فقط . أن أكتبَ عن عشقي الأبدي : القصة القصيرة .

•بِـمَ عـّمدتَ نصوصك ؟

- بماءِ نهرِ حياتنا المهدمة الذي يجري سريعاً ليشق لنفسهِ دروباً على هواه .

•مجموعتك ((مدوّنات أرملة جندي مجهول)) جاءتْ على هيأةِ قصصٍ قصيرةٍ جداً.هل هي وطنك اليوم ؟

- لا . أنها منفاي.

•هل كانتْ قصصك طوال مسيرتك الأدبية ترى نفسها مرة في مرآةٍ محدبةٍ ومرآة مقعرة ؟

•- ((..........................)).

•غنائيةُ نصوصِكَ منذ ((إيقاعاتِ الزمنِ الراقصِ)) حتى ((بناتُ الخائبات)) . هل هي مقصودة ؟

- بداخلي شاعرٌ... منذ محاولاتي الأولى سعيتُ لجمالية عبارتي السردية ورشاقتها وجعلتُ ما أكتبه مغموساً بالشعرِ . جماليةٌ خاصةٌ بي وحدي ترضي بداخلي الشاعرَ. آهٍ . تسحرني اللغة الجميلة إنها كالأنثى الفائقةِ الحُسنِ.

•إلا يقلقك أن يعيبكَ النقد ؟

- القراءُ الجادون يتعلقون بالمحكي الجميل لا بالقَصْخُون الماهر , فالمحكي المطرب يخترق الروح وتهواه النفوس وتلتف حوله القلوب قبل الأجسادِ بعيونِها... بعدَ أن تستقرَّ أسئلتُها وتزولُ حيرتُها .

•ما الداعي لكلِ هــذا العذاب ؟

- أن أكونَ شاهداً حياً على ما مررنا به من مصائبٍ ونكباتٍ وعذاباتٍ . الكتابةُ تدونُ الحزنَ والفرحَ معاً.

•ألكَ صوتٌ قصصيٌ ؟

- حاولتُ أن تكونَ لي تغريدةُ . لكن ... !

•لكن ماذا . أأهملَ النقادُ منجزكَ الأدبي ؟

- لقد اهتمت النقديةُ العراقيةُ وبعضُ النقاد العرب بما كتبت اهتماماً كريماً , وأخذوا بيدي إلى آفاقٍ رحبةٍ من المعرفةِ

الإنسانيةِ لبناءِ قصةٍ ناجحةٍ تدوزن أوتارها بالعلم.

•أتوفقني الرأي أن من أظهركَ إلى النورِ وجهاً لوجه مع القراء هي مجموعتك البكر ((إِيقاعاتُ الزمن الراقــص))..؟

- **لا . زليخاتُ يُوسُفُ من أظهرني إلى النور .**

•أبرز ما جاءت به موضوعاتها ؟

- **أبرزتُ فيها أثري؛الحرب والحصار.**

• أَحـَلقتْ بها خارج سربك الذي نشأتْ فيه ؟

- **الرأي متروكٌ للذين أفنيتُ عمري أكتب لأجلهم .**

• القارئ المتتبعُ لمدوّناتك يجدها مليئة بملامح الحياةِ في المدينةِ تحديداً . لماذا هذا الاهتمام بالمدينة ؟

- ولدتُ في مدينةٍ تحترقُ مشقةً ضاريةً شاملةً بفعلِ القمعِ السياسي الوحشيِّ ... كان حــزنُ الناصرية عــميقاً بليغاً مؤثراً... كانت ْ تفـرطُ فـي كــرمها , وكأنها تجــود بنفسها ... مدينةٌ رافدينيةٌ تفتقُ بغنائها الموجع إنسانيتك , وأحدُ أسرارها أنها تجبرك على البكاءِ في ريعان الشباب . وتظلُ تبكيها وتبكيك وأنت تحترق كالشمعة قراءةً لواقعها إلمزري , وفي كلّ مكانٍ من أمكنتها العتيقة تجدُ أنّ هناك َ حكايةً لأناسٍ تعذبوا ظلماً وتعسفاً... شكلـّت قصصي موقفاً مما عشناه في ثمانينيات وتسعينيات المدينة العراقية موقفاً إنسانياً منتصرا ً لحياتنا

المشبعةِ بالخوفِ من الاعتقال , والموت تصفية في غياهبِ السجون , والهلع من القتلِ في خطوطِ التماسِ , ورعب النفوق جوعاً في الحصار , والظلم الاجتماعي . أن مدننا ترملت يوم زفافها ولبست السواد .
ســـــواد الفقد . فقد الأحبة موتاً . موت رجالاتها في جبهات الحياة .
فكل معزوفة من معزوفاتي أتت مليئة بملامحِ أنقاضِ الحياةِ الإنسانيةِ لمدنِ ما بين النهرين المسحوقةِ .

- علي السباعي : -

v alialsubaii@gmail.com

v علي عبد الحسين صالح نجم السباعي

v مواليد العراق / الناصرية / الخميس صباحاً ١٠ /١٩٧٠/٦

v كتب أول قصة له في ١٩٨٤/٤/٢٤،كانت بعنوان :- (عربدة عقب سيجارة الضابط العراقي) .

v نشر أول قصة له في مجلة(الإتحاف)التونسية عام ١٩٩٧ م ، كانت القصة بعنوان :- (عرس في مقبرة) .

- له كتب :-

١. إيقاعات الزمن الراقص / مجموعة قصصية / عن :- اتحاد الأدباء والكتاب العرب / سوريا / دمشق / سنة ٢٠٠٢ م.

٢. صرخة قبل البكم / مجموعة قصصية / حصدت الجائزة الثالثة في الدورة الثالثة لمسابقة دبي الثقافية عام ٢٠٠٣/٢٠٠٤ م.

٣. زُليخاتُ يُوسف/مجموعة قصصية / عن :- دار الشؤون الثقافية العامة في العراق / بغداد سنة ٢٠٠٥ م.

٤. احتراق مملكة الزاماما /٢٠٠٦ م ، حصدت جائزة ناجي نعمان / بيروت / لبنان / صدرت عن دار الينابيع للنشر / سوريا / دمشق سنة ٢٠٠٩م.

٥. بنات الخائبات / قصتان قصيرتان / عن دار :- ميزوبوتاميا / العراق

/ بغداد / عام ٢٠١٤ م .

٦. مدونات أرملة جندي مجهول / مجموعة قصص قصيرة جداً / عن دار ميزوبوتاميا / العراق / بغداد / عام ٢٠١٤ م .

٧. شهرزاد : قدري / شهادات / عن دار :- صافي للنشر ولتوزيع / الولايات المتحدة الأمريكية / واشنطن / عام ٢٠١٧ م .

٨. قصص لا تستحق النشر / مجموعه مؤلفين / عن دار قناديل / العراق / بغداد / عام ٢٠١٧م ، وذلك بقصة قصيرة : - (رحلة الشاطر كلكامش في دار السلام) ، صفحة ٣٣ .

٩. على حافة السرد / مجموعة ادباء / عن دار جولدن بوك للنشر والتوزيع / مصر / القاهرة / عام ٢٠١٧ م .

١٠. جداريات . . . منتخبات من القصة العراقية الحديثة / قصص / عن منشورات أحمد المالكي / دار السماء / العراق / بغداد عام ٢٠١٧ م ، وذلك بقصة قصيرة : - (وساخات آدم) .

١١. مَسلّة الأحزان السومرية / مجموعة قصصية / عن دار الدراويش للنشر والترجمة / بلوفديف / بلغاريا / عام ٢٠١٨ م .

- له مخطوطات :-

v يمضي وتبقى شهرزاد(ليالٍ قصصية).

v وبقى رأس النعامة تحت الرمال/قصص.

v رأس النعامة خارج الرمال/قصص.

v ألواح . . . من وصايا الجد / قصص قصيرة جداً .

- **نخلات عاشقات يأكل رؤوسهن الطير / قصص .**
- **روايتان.**
- **رحلة الشاطر كلكامش إلى دار السلام / قصص .**

- **الجوائز:-**

- **الجائزة الأولى في مسابقة [بيت الشعر العربي] للأعوام (١٩٩٦،١٩٩٧،١٩٩٨) على التوالي ، عن القصص :-**

1. **مدينة حلمت بحكاياتها /١٩٩٦ م.**
2. **إيقاعات الزمن الراقص /١٩٩٧ م.**
3. **عرسُ في مقبرة /١٩٩٨ م.**

- **الجائزة الثالثة لمسابقة مجلة /أور الإبداعية / لعام ١٩٩٩ م ، العراق ، وعن قصة :- [مومياء البهلول] .**
- **الجائزة الثالثة في مسابقة دبي الثقافية ٢٠٠٣/٢٠٠٤ م ، عن مجموعته القصصية الموسومة [صرخةُ قبل البكم] .**
- **جائزة (ناجي نعمان) ، في لبنان / بيروت عام ٢٠٠٦ م ، عن مجموعته القصصية الموسومة[احتراق مملكة الزاماما] وقد ترجمت النصوص إلى خمس لغات حية .**
- **الجائزة الأولى في مسابقة أور الإبداعية عام ٢٠٠٦م ، العراق ، وعن قصة [فرائس بثياب الفرح] .**

- v **الجائزة الأولى في مسابقة برنامج ((سحر البيان)) ، الذي أطلقته الفضائية العراقية ، عام ٢٠٠٦ م ، حصل فيها ** علي السباعي ** على درع الإبداع الذهبي في القصة ، وسميَّ بقاص العراقية.**

- v **درع الدولة العراقية ، درع (إبداع خارج الوطن) ، لما حققته للعراق من انجازات وجوائز أدبية ، عام ٢٠١١ م وسلّم الدرع والشهادات التقديرية من قبل وكيل وزير الثقافة العراقية فوزي الاتروشي .**

- v **الجائزة الأولى(مناصفة)في مسابقة أور الإبداعية عام ٢٠٠٧م ، العراق ، وعن قصته الموسومة بعنوان [مزاد الرؤوس العلني] .**

- v **الجائزة الثانية في مسابقة ((أيلو)) للقصة القصيرة عام ٢٠١٦ م ، بغداد ، وعن قصته الموسومة تحت عنوان :- ((رحلة الشاطر كلكامش إلى دار السلام)) .**

- v **درع إبداع جامعة ذي قار بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة لتأسيسها يوم الخميس ٥ آيار ٢٠١٦ م.**

- v **الجائزة التقديرية في مسابقة القاص زمن عبد زيد للقصة القصيرة جداً عام ٢٠١٧ م , عن عشر قصص قصار جداً .**

- v **الجائزة الثالثة مناصفة في مسابقة الثقافة هي الحل للقصة القصيرة عام ٢٠١٧ م ، بغداد ، وعن قصته الموسومة تحت عنوان :- ((كلكامش يغني لسليمة مراد)) .**

- v **جائزة مسابقة (كولدن بوك) للقصة القصيرة في القاهرة - مصر ، عام ٢٠١٧ م .**

- v **جائزة (ريشة الإبداع) من صالون مي زيادة الأدبي وبالتعاون مع**

دار النقد الإبداعي في القاهرة – مصر ، عام ٢٠١٧ م .

- v الجائزة الثالثة مكرر في مسابقة شاعر – أديب النيل والفرات بدورتها الثانية بالقاهرة في آذار – مارس ٢٠١٨ م ، وعن مجموعته القصصية والموسومة تحت عنوان :- ((نخلات عاشقات يأكل رؤوسهن الطير)) ، حيث منح لأثرها وسام ولقب :- « أديب النيل والفرات « .

- v درع الإبداع ، درع الإبداع من الدرجة الأولى منحته مؤسسة الولاية الثقافية لمنجزه القصصي المتميز عام ٢٠١٨ م .

- v الجائزة الأولى للقصة القصيرة في مسابقة المنتدى الثقافي للأصالة والمعاصرة بالقاهرة – مصر في نيسان – أبريل ٢٠١٨ م ، وعن قصة الموسومة بعنوان :- ((كاكا . . . عبد الحليم حافظ)) .

- v الجائزة السادسة في المسابقة العربية الكبرى للقصة القصيرة بدورتها الثالثة لعام ٢٠١٨ م ، دورة الروائي والقاص العراقي الراحل (كاظم الحصيني) عن قصته الموسومة :- ((شارلي شابلن يموت وحده)) .

- v العديد من الجوائز التقديرية في مسابقات عدة.

- كتب بحق أدبه :-

- v (ويلات الزاماما في سرديات القاص علي السباعي) للناقد (وجدان عبد العزيز) عن دار فضاءات عمان – الاردن عام ٢٠١٥ م .

- v ((المنجز الإبداعي للقاص العراقي علي السباعي)) عن دار تموز للنشر والتوزيع في دمشق – سورية – عام ٢٠١٧ م .

- (الميتا قص في نصوص القاص علي السباعي) عن منشورات احمد المالكي – دار السماء بغداد – العراق عام ٢٠١٧ م .

- دراسات بحق أدبه وردت في كتب :-

- دراسة : ((دلالة المضمون السردي في « زليخات يوسف «)) — صفحة ١٤٩ ضمن كتاب : « مرايا السرد مقاربات تنظيرية و تطبيقية في السرد العراقي الحديث « – زهير الجبوري / دراسات / طبع هذا الكتاب على نفقة وزارة الثقافة لمشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية / عام ٢٠١٣ م .

- دراسة : ((استرجاع الدلالة وتوظيفها في قصة وتبقى قطام لعلي السباعي)) – صفحة ١٠٦ ضمن كتاب : « متابعات نقدية « – عبد الهادي والي / دراسات / دار الينابيع / دمشق – سوريا عام ٢٠١٠ م .

- دراسة : ((طرائق القص وتنويعات الأسلوب في قصص زليخات يوسف لعلي السباعي)) – صفحة ١١٠ ضمن كتاب : « متابعات نقدية « – عبد الهادي والي / دراسات / دار الينابيع / دمشق – سوريا عام ٢٠١٠ م .

- دراسة : ((الخوف وخراب الامكنة في قصص علي السباعي)) – صفحة ١٤٥ ضمن كتاب : « متابعات نقدية « – عبد الهادي والي / دراسات / دار الينابيع / دمشق – سوريا عام ٢٠١٠ م .

- دراسة : ((علي السباعي في (إيقاعات الزمن الراقص) – تصوير لحلكة الحياة العراقية)) – صفحة ٢٣ ضمن كتاب : « السرد في مشغل النقد – شكيب كاظم / دراسات / دار فضاءات / عمان - الأردن عام ٢٠١٤ م .

- v دراسة : ((التسامي السردي لأشباه المشيدات)) – الفصل الرابع - صفحة ١٣١ ضمن كتاب : « منشئيات مأوى القص « / إسماعيل إبراهيم عبد / نقد / إصدارات دار الشؤون الثقافية العامة – وزارة الثقافة / بغداد - العراق عام ٢٠١٤ م .

- v دراسة : ((البنية السردية ومرجعيات النص)) – الفصل السادس – صفحة ٢٢٠ ضمن كتاب : « تمثلات ليليث « مقاربات نقدية في الشعر والسرد / أمجد نجم الزيدي / نقد أدبي / دار الروّسم / بغداد – العراق عام ٢٠١٥ م .

- v دراسة : ((القصة القصيرة جداً في العراق)) ح صفحة ٢٣ ضمن كتاب : « ألق الحكاية . . . استشراف القصة القصيرة جداً « / عباس داخل حسن / نقد / دار سطور للنشر والتوزيع / بغداد – العراق عام ٢٠١٥ م .

- v دراسة : ((مرآة الوفاء : القاص علي السباعي يسجل :» مدونات أرملة جندي مجهول «. . . ويناضل ضد مسح الذاكرة)) – صفحة ٩١ ضمن كتاب : « السرد ومرايا الذاكرة « / أمجد مجذوب رشيد / نقد / دار مقاربات للنشر والصناعة الثقافية / فاس – المملكة المغربية عام ٢٠١٦ م .

- v دراسة : ((العجائبي والرمزي في الكتابة القصصية . . . قصة عرسٌ في مقبرة للقاص العراقي علي السباعي – صفحة ٩٨ ضمن كتاب : « السرد ومرايا الذاكرة « / أمجد مجذوب رشيد / نقد / دار مقاربات للنشر والصناعة الثقافية / فاس – المملكة المغربية عام ٢٠١٦ م .

- v دراسة : ((ثأر . . . بإيقاع العصر – تراكمات حزن لأحلام متعثرة في زليخات يوسف)) صفحة ١٤٦ ضمن كتاب : « مكاشفات

نقدية « / كريم شلال / نقد / دار ومكتبة البصائر / بيروت – لبنان عام ٢٠١٧ م .

v دراسة : ((الإخصاء ألذكوري والاستباحة الأنثوية في بنات الخائبات)) صفحة ضمن كتاب : « إرساء ملامح النسوية – قراءات تطبيقية « / عبد الغفار العطوي / نقد / دار أمل الجديد / دمشق – سوريا عام ٢٠١٨ م .

- أفردت مجلة « رأينا « الثقافية الشهرية ملفاً كاملاً عن القاص (علي السباعي) , تحت عنوان :- « راهب صومعة القص « ، بعددها ذي الرقم ٧ في ٢٠١٦ م .

- دراسات بحق ادبه :-

v نال الطالب (حازم كامل كيطان القطراني) شهادة الماجستير والموسومة :- (علي السباعي قاصاً) عن جامعة مؤتة – الأردن عام ٢٠١٥ م .

- ترجمت بعض قصصه إلى الانكليزية والهولنديةواليابانية .
- نشر له العديد من الدوريات والمجلات والصحف والملاحق الأدبية العربية والعراقية.

الفهرس

الدراويش رؤية جديدة

في مجال النشر والترجمة

www.darawesh.com

daraldarawesh@gmail.com

https://www.facebook.com/Daraweshplovdiv/#



Plovdiv- Bulgaria

2018

